شفيقة .. وسرها الباتع

رواية



- مركز الحضارة العربية مؤسسة ثقافية مستقلة ، تستهدف المشاركة في استنهاض وتأكيد الانتماء والوعي القومي العربي، في إطار المشروع الحضاري العربي المستقل .
- يتطلع مركز الحضارة العربية إلى التعاون والتبادل الثقافي والعلمي مع مختلف المؤسسات الثقافية والعلمية ومراكز البحث والدراسات ، والتفاعل مع كل الرؤى والاجتهادات المختلفة
- يسعى المركز من أجل تشجيع إنتاج المفكرين والباحثين والكتاب العرب ، ونشره وتوزيعه .
- يرحب المركز بأية اقتراحات أو مساهمات إيجابية تساعد على تحقيق أهدافه .
- الآراء الواردة بالإصدارات تعبر عن آراء كاتبيها ، ولا تعبر بالضرورة عن آراء أو اتجاهات يتبناها مركز الحضارة العربية .

◆

رئيس المركز

على عبد الحميد

مدير المركز

محمود عبد الحميد

مركز الحضارة العربية
٤ ش العلمين - عمارات الأوقاف
ميدان الكيت كات - القاهرة
تليفاكس : ٣٤٤٨٣٦٨

فؤاد قنديل

شفيقة.. وسرها الباتع

رواية



الكتـاب : شفيقة وسرها الباتع
روايـــة

الكاتب : فؤاد قنديل

الناشر : مركز الحضـــارة العربيـــة

الطبعة العربية الثانية : القاهرة ٢٠٠١

رقم الإيداع ٢٦٢٥ / ٢٠٠٢
الترقيم الدولي: I.S.B.N.977-291-352-6

لوحة الغلاف : محمـود الهنــدي
جرافيـــك : ساهـد عبـد الفتـــاح

الجمع والصف الإلكتروني
وحدة الكمبيوتر بالمركز
تنفيـــــذ : صفـــــاء الشريـــف
تصحيـــــح : كمـال عبـد الرســول
زكريـــا مبـــروك

الإهداء

إلى

نهى

ودينا

وكريم

أغلى من في الوجود

بابا



”قبل أن تبزغ النبتة وتواجه الشمس
تغوص في الأرض لتتشبث بالرحم الأصيل“



(١)

حدد إبراهيم لكل زوجة حجرة وأسبوعاً ، وطالما كان النهار قائماً ، حق لإبراهيم أن يجلس حيث يشاء ، وإذا حل الليل فلابد أن يمضى إلى الحجرة التى عليها الدور .

لم تكن أم صابر تعبأ أن يبيت عندها أو لا يبيت ، وهو نفسه لم يكن فى أسبوعها يشاركها الفراش مشاركة تامة . وربما فعل من قبيل ذر الرماد فى العيون .

كانت أم صابر كمن فقدت شهيتها ، فضلاً عن أن ملابسها لاتسلم من رائحة الدخان وروث البهائم والبصل والثوم والعرق ، وروائح كثيرة تتشبث بها ، وإبراهيم لا تنقصه مبررات القرف والتعاسة .

أما فرحانة فكانت تعد الساعات إلى أن يجىء دورها فتقبض عليه فى حرص ، وتتمنى لو جاء من الغيط إلى حجرتها مباشرة .

كل ما اهتمت به أم صابر أن حذرت إبراهيم من التضاحك مع زوجته بصوت عالٍ ، حتى لا تسمعه البنات لأنها لو أحست أن بنتاً من البنات سمعته فسوف تهجر الدار إلى الأبد . كان يهوِّن الأمر ، وهى تؤكد له أن رقية وشادية ليستا أقل من عروستين . فالأولى فى السادسة عشرة والثانية فى الرابعة عشرة ، وكوثر فى العاشرة ، وكلهن يفهمن معنى هذه الضحكات .

فى هذا الأسبوع كان على إبراهيم أن يبيت فى حجرة فرحانة . وما أن أغلق الباب واستدار إليها ، حتى لاحت له فى الرداء الأحمر القصير ، الذى يبرق فى الظلام كعين شيطان ، حدق لحظة كأنه يراها لأول مرة ، ثم خلع الطاقية ، وكأنه بهذا قد تعرى ، وطوحها فى

فضاء الحجرة ، فسقطت حيث لا يعلم .

يسعدها أن تراه في هذه الحالة الجنونية بديلاً عكسياً لحالة تعسة ويائسة ، فهو ساخط دائما لايكاد يحمد الله كما يتعين عليه . وليس بالشاكر له حلو الحياة ومرها .

ها هو في أسبوع فرحانة يلقى بنفسه في بحرها ليستحم من أدران النهار الموحش ، ويغتسل بليلها الفضى الدافئ .

يمكن لفرحانة وهو بين براثنها أن تطلب ما تريد ، ولا تعرف إلا الطلب ، فإذا وافق أغرقته وهذا ما يريده ، وإذا لم يوافقها أو يستجب ولو حتى بالوعد تدللت ، وادعت ادعاءات يضطر معها أن يلعن أجدادها ، إذ يكون قد وصل إلى نقطة اللاعودة ، وعندها أيضاً لا يكون لديه البديل فلابد من أن يعدها بالاستجابة .

وتعود تتدلل حتى يقسم لها أن يفعل ، وأنه ليس كلام الليل بالزبد طلاه .

- أريد راديو ترانزستور أحمله في يدى وأستمع إليه في الغيط .
- غالى والطلب رخيص .
- أريد تليفزيوناً .
- هل تحسبيننا في البندر ؟
- كل أهالى الكفر عندهم إلا نحن .
- منظرة .
- بل ضرورة من الضروريات .
- غالى الثمن .
- لايغلو علىَّ . ثم إنه لن يكون لى وحدى بل سيشاهده أولادك .
- يسهلها المولى .
- أريد غسالة بالكهرباء .
- لماذا ؟

- لأغسل عليها .
- أنت لاتغسلين .
- لنغسل عليها .
- هم مرتاحون هكذا .
- لابد من غسالة .
- الظروف لاتسمح .
- إذن فدعنى أنام .
- هل هى مهمة إلى هذه الدرجة ؟
- جداً .
- كل النساء يغسلن بأيديهن .
- وأختك التى تخرج الغسالة إلى الترعة المارة بدارها ، وتمد لها سلك الكهرباء .
- حسناً . سنشترى غسالة .
- وأريد داراً أقيم فيها وحدى ، ألم تتفق معك أمى على ذلك ؟
- ... هذا هو المحال .
- أنا لا أستطيع العيش هنا .
- وهل مسك أحد بسوء ؟
- أريد أن أخدمك بنفسى .
- أنت لا تقصرين .
- أريد أن أطبخ لك .
- إلا الطبخ .
- أريد أن أخرج وقتما أشاء .
- اخرجى من الآن وقتما تشائين .
- أحس رقيباً علىَّ .
- أبدا ولا أنا .

- ستبنى لى داراً ؟
- انسى الدار الآن ، حتى يأذن الله .
- بل لابد .
- لابد إن شاء الله ..هات قبلة .
- لقد تقطعت ملابسى وقدم بها العهد .
- غير معقول .. لديك الكثير لم يلبس .
- بطلت موضته .
- هل وصلت الموضة إلى الكفر ؟!
- ولم لا ألسنا بشراً ..أم أننا لا نستحق ؟
- تستحقون وعشرة .
- إذن أريد ملابس جديدة .
- بعد أن نبيع البرتقال .
- أنتظر شهوراً ثلاثة !
- تمر بسرعة .
- يكون الشتاء قد مضى .
- بل فى أوله .
- عدنى .
- أعدك .. وهل أتأخر عن الجميل أبداً !؟
- أنت تتهرب منى .
- اطمئنى .. هات قبلة .
تركته يقبلها ويقضم لحمها قضماً ، ثم قالت له :
- ذهبت اليوم مع أم لبيب إلى بلتان لزيارة الشيخ الجوهرى .
- وماذا قال ؟
- قال : لكى تنجبى عليك أن تدلكى رأسك وبطنك بيد ميت حديثاً .

هذا رجل مجنون . فكيف نمكنك ذلك ؟
هذا ما أفكر فيه . وأنا لا أستطيع أن أدخل على ميت . فكيف
مسك يده
انسي هذا الموضوع
شاغلي ليل نهار
وأنا لا أستطيع أن أقتل لك شخصا لتمسكي يده .
والعمل ؟
ارادة ربنا
ارادته ستسمح
لم يحن الوقت بعد
أفكر أن أجرب وصيه ام لبيب ؟
وما وصيتها . وهل لها علاقة بالحكيم لقمان ؟
تستهزئي بي ؟!
أسألك حقا . ما وصية أم لبيب ؟
أن أستحم في مياه استحمت فيها قبلي شفيقة العبيطة
ولماذا شفيقة العبيطة بالذات ؟
يقولون لأنها طاهرة ؟
ومن ادراك ؟
مؤكد فهي بلهاء . لاتمس احدا . ولاتسب أحدا . ولا تنطق بكلمة
ضد احد . ولا تضمر شرا
وكيف تستحمين مكانها
أحضرها إلى الدار وأطلب اليها أن تستحم في أشياء جديدة
طشت جديد وليفة جديدة وصابونة جديدة ثم أستحم مكانها
أعوذ بالله . وبعد ذلك تنامين معي . مستحيل
انت ورغبتك

- افعلى ما تشائين .
- سأبدأ بشفيقة .
- طبعاً لأن يد الرجل الميت مستحيلة ، إلا إذا كانت يدى .
- فماذا أفعل بها عندئذ ؟
- نامى إذن ودعينى أنام ، غداً سنعزق الأرض .
- هذا غداً ، أما الليلة فهى لى .
- وعد صابر بالحضور اليوم ولم يحضر .
- حجته معه .
- أى حجة إنه الآن يتسكع فى بنها مع أصحابه . لايريد أن يقضى إجازته معنا . . الأرض تحتاجه وهو لا يحب أن يشقى .
- دعه يتمتع بشبابه .
- ألا يحتاج الشباب إلى المال ؟
- كثير جداً .
- إذن نامى ولاتنسى أن فرح كريمة ابنة أخى لاشين غداً . . كونى هناك من أول النهار .

قالت له : هل تعلم أنى حلمت بك قبل أن يذهب زوجى إلى الحرب .

تسربت لمسات الأنثى الرقيقة فأضاءت عروقه ، امتلأ الجسد بالنور ، فشف وخف وسما وتخلى . اقشعر بدنه بالرغبة وهاجت أعصابه وخلاياه . صحا الغول وتجول وتمدد وتضخم وتعملق وكاد ينفجر بداخله . ضاق عن احتوائه . أغمض عينيه . طالعه من المجهول تشكيل أسطورى له ملامح غول مضىء يجتذبه إليه . اندفع نحوه وهو الممتلئ بالغول . اختفى فى الغول الضوء المرابط كسفينة ضخمة على الشاطئ تفتح بطنها لاستقبال المؤن .

ضمه العالم السحرى . كان مغمض العينين بالنشوة يرى كل الأشياء وكل الألوان ويذوق كل الطعوم . يسمع حشدا من الأنغام المجنونة الملتهبة .

أحس أنه لايرقد كما يرقد الناس . إنه يدور في فلك عجيب . يحمله إلى كل الاتجاهات والزوايا ويطلعه على أخفى الأسرار . ثم تدلى في بئر جدرانه مرايا ، تتبدى عليها صور متباينة لأشكال لايعرفها ولا يميزها ، أخذ دون أية إرادة يتدلى إلى أن بلغ قاع البئر ، فإذا هو على فراش وثير ، وتلفت دون أن يفتح عينيه . لم يعد هناك أى سر . . تلاشت كل الأسرار . أحس بجسده مجرد كتلة محطوطة وثقيلة ومظلمة . فسكن ونام .

كان الرجال فى الحلقة يرقصون فى حماس وعنف، كأنهم يحاولون التخلص من شياطين تختفى فيهم وتتلبس أجسادهم . الأكف تصفق بكل الأعصاب والعضلات . . تصفق بإخلاص شديد كأنها تريد أن تؤكد أنها جميعاً فرحة بالعروسين ، سعيدة غاية السعادة بما أقدما عليه.

ألسنة النساء تدور منتشية فى جنون داخل حلوقهن مزغردة ، كأنها فى امتحان . من تنجح فيه سوف تلحق بالعروس .

ستقع عليها حتماً عيون الرجال ، منهم من استعد وجاء يبحث عن عروسه ، ومنهم من لم يستعد ، لكنه لم يستطع أن يكتم صراخ جسده ونداء روحه لطلب الوليف أنيس الليل واللقمة والسنين القادمة .

العريس يجلس على مقعده ، بينما مقعد العروسة شاغر ينتظرها .

العروس مع أبيها وأمها ، فى آخر لحظة أتيحت لهما كى يختليا بها قبل الرحيل إلى بيت الزوجية .

مد الأب كفيه فى الفضاء قبالة ابنته ، ثم أرساهما على كتفيها . حدق فيها وكأنه لن يراها مرة أخرى . . بدا متأثراً للغاية . متوتراً . جاف الحلق مضيع اللسان .

طأطأت العروس رأسها فى حياء . تعلم أن أباها سيتكلم ، ومادام سيتكلم فلابد أن تسمع ، ولكى تسمع جيداً فقد تعودت أن تحنى رأسها ، حتى لايشغلها شىء إلا كلماته ، وأنصتت أختها مديحة التى تبلغ السادسة عشرة .

- كريمة . . ستعيشين يا ابنتى مع زوجك وأهله . ولو كانت حياتك معه وحده ، لما كانت لى كلمة ، ولكن الحياة مع أهل الزوج لها وضع خاص .

أومأت برأسها .. بدا الموقف فى نظر الأم كأنه طقس من طقوس الجنازة فاندفعت مشفقة على ابنتها تقول :

- ابنتى تعرف الأصول .

- أعلم . لكن الإقامة مع أهل الزوج تتطلب أصولاً جديدة لاتعرفها، ومن حقها علينا أن نسلحها بالمعرفة .

- أنا فقط أخشى عليها من أمه ، وقلت لك لابد أن نشترط عليه ألا يقيم معها ، لكنك رفضت .

- طلبت منه ذلك ، فقال إنه لا يستغنى أبداً عن والديه ، ولا يصح أبداً أن أدفعه للتخلى عنهما .

- كان عليه أن يبنى داراً صغيرة لن تقتطع من أرضهم الواسعة إلا نصف قيراط .

- مستحيل أن نفصّل الناس على أمزجتنا وهوانا .

- لو تمسكت لأطاع، لوأظهرت صلابة لانحنى، أنت الذى انحنيت .

- يجب أن نحترم ظروفه .

- ولكن .

- لن أسمع منك كلمة .

- توكلى على الله يا ابنتى واطمئنى .

- هو ذاك يا كريمة .. توكلى على الله .

- لم تكمل يا أبى .

- ماذا كنت أقول ؟

- للإقامة مع أهل الزوج أصول ..

- نعم .. نعم .. المسألة ليست معقدة .. المطلوب منك أمر واحد .

- ما هو ؟

- أن تقبلى آراء والديه بلا جدل ، ولا تغضبى من سلوكهما ، ولا تنزعجى من أفكارهما ، فطبيعى أن تكون مختلفة .

- ولكنك تطلب إليها أن تكون عبدة يا حضرة الناظر .
- لم أطلب أن تكون عبدة .
- ألا تأمرها بأن تطيع فقط ؟

تململ الأستاذ لاشين ، وأحس بحرج الموقف وتمثل له أبوه بغتة ، وقد عوَّده أن يظهر له في مثل هذه المواقف .

أدار ظهره لابنته وأمسك بعمود السرير ، كأنه يريد أن يتيح الفرصة لنفسه كي يتذكر أباه ، أو يتيح الفرصة لأبيه كي يقول له شيئاً .

يحلو له أن يتذكر أباه ، رغم ما كان معروفاً عنه من العنف والجبروت والقسوة والبطش حتى لقد اعتقد من يعرفه أنه ليس بشراً على الإطلاق وليس أباً .

بل إن من عرفه حق المعرفة شك أنه بشر واعتقد أبناؤه في غير مرة أنه ليس أباهم ، ومنهم من ظل يعد نفسه يوماً ما كي يسمع أن أباه ليس أباه .

حوَّمت برأسه الأفكار . اشتاق الحاضر فيها للماضي وود لو يرجع إليه ، هكذا الحاضر دائما . رغم أن الماضي منطقة تسودها العتمة إلا أن الحاضر يمد يده إلى الماضي كما تنثني الأغصان نحو الجذع .للماضي دفء وحرارة.. معنى ومذاق .

تحدث الأستاذ لاشين إلى نفسه :

لايعترض أحد إذا قيل إن الأجيال تتطور في الطبع والسمات ، في الطموحات والأماني ، في الوسائل والغايات . لكننا على ما يبدو جيل رخو . هذه أبرز سماته .. جيل لزج . جيل لايعرف كيف يكافح ويقاوم أو يصمم .

انتظرت الابنة في قلق .. أشفقت عليه .. كانت تحبه .. وهو في نظرها نموذج الرجل النبيل ، القوى بفكره ومبادئه .

اضطربت لما يبدو عليه ، وكأن آلاف المشاعر المتناقضة تجتاحه وتعصف به . ما الذى يدور فى خلده ، لماذا لايقول لها ما يريد أن يقول ليهدأ باله وتذهب ؟

تنبه الرجل لحالته ، وعاد من ماضيه إلى حاضر يفكر فيه ، ويغوص فى لحظته . لم يعد الأب - أى أب - بقادر فى هذه الأيام على أن يصارح ابنه بما يريد ، أصبح يخشاه أو يشفق عليه أو . .

يحس أنه خلق من زجاج ، ئـلا يتعين عليه أن يلقى عليه حصاه أو يقرعه بعصاه . . أما آباؤنا والأجداد فكانت كلماتهم تلقى بلا رحمة ، ليكن وقعها ما يكون ، لتفقأ عينًا . . لتكسر رأسًا . . أو تحطم قلبًا . . كلمة الأب كلمة رب .

استدار الأستاذ لاشين بغتة إلى ابنته وقال :

- حكى أبى مرة قال : فى اليوم السابق لزواج عمتى قبل أن تنتقل إلى بيت زوجها وأهله زعق عليها جدى فأسرعت إليه . قبض على رسغها بيد من حديد وساقها أمامه إلى الحظيرة ، وربطها بأحد الجذوع التى تحمل السقف . ومد يده إلى السوط الذى أعده لهذا الغرض ، وبكل قوته وبكل عنف الحياة والتمسك بها ، هوى عليها بالسوط قائلاً لها :

- لو قالوا لك : إن أباك ابن كلب . فقولى لهم : ابن ستين كلب .

كاد السوط يشقها نصفين ، صرخت عمتى بالطبع صرخة الفراق وشهقة الموت . دون أن يعبأ بشيء ، هوى جدى بالسوط الثانى عليها وهو يقول :

- لو قالوا لك : ستعيشين على الخبز والماء فقط . فقولى : الماء يكفى .

وهوى السوط الثالث :

- لو قالوا لك : ستنامين فى الشتاء بلا غطاء وتمشين بلا كساء . فقولى : نعمة من الله .

وهكذا إلى أن أفرغ شحنته وألقى السوط ، وهنا فقط سمع بوضوح نشيج جدتي وبكاء أعمامي وعماتي ، وهم يقاومون الصراخ ويدسونه كالخنجر في الصدور . لم يتعودوا أن يردوا كلمة للجد الجبار .

من الغريب أن العروس بعد أن ترحل إلى بيت زوجها ويتخلص كل منهما من ثياب العرس . يدور العريس حول عروسته يتأمل جسدها ، ويتأكد من وجود الأختام . بصمات السوط على الجسد ، وهذا معناه أن أباها رباها ، فأحسن التربية ، وعلمها الأصول وأمدها بالجهاز الحقيقي للعروس .

اندفعت الأم ثانية :

- ما هذا الذى تقوله .. إنها عصور الهمجية .

فجأة سمعوا طرقاً على الباب :

- هيا يا عروسة .. العريس ينتظر .

- حالاً .. إنها قادمة .

- أنا أعترض على الأسلوب .. المهم الدلالة .

- فهمت يا أبى ، لكن للأسف صعب أن أوافق على خطأ .

- فليكن لك إذن أسلوب مهذب في الاعتراض .. ما دام لم يقبل فلا مفر من الطاعة .

أومأت العروس برأسها موافقة .

عادت الأكف تقرع الباب . قبّلت الأم ابنتها وقبّلها الأب ، نظرا إليها نظرات أخيرة مضمخة بالحنان والأماني الطيبة . عانقتها مديحة بحرارة .

فتحت الأم الباب .

اندفع فيضان البنات إلى الحجرة ، جرف الفيضان العروس في موكب من الزغاريد . الضحكات . الهتافات . عبارات الترحيب والدهشة والتهاني .

لا أحد يستمع لأحد .

بصعوبة بالغة خرج لاشين إلى الطريق . . كان لابد له أن يخرج . . اكتشف بعد حديثه إلى ابنته أن أعصابه متوترة وأحاسيسه هائجة .

الليلة هى الرابعة عشرة من الشهر العربى . كان الليل مضيئاً على غير عادته ، يتدلى من سمائه قمر رائع ، يغرى بالحب والأمل . وتتألق صفحة وجهه البهيج . بدا الصمت العميق كأنه يود لو يبوح بسر . صاحت الديكة فى حماس ومازال المساء فى أوله . . كانت تشارك فى فرح ابنته ككل أهل القرية .

تنهد من جذوره . . شعر بالهدوء الذى يستشعره من أدى الواجب .

مضى إلى المسجد فصلى العشاء وتأمل الليل الوديع . . استنشق النسيم المعطر . . هزته فجأة طلقات النار . أسرع عائداً إلى الدار . ألفى الفرح وقد تحول إلى مهرجان للقرية كلها . استقبلته الطلقات من جديد ، لم ينتبه الشباب إلى عودته . زعق فيهم . تقدم منهم وأمر ألا يطلقوا النار منددا بهذه العادة القاتلة فى تحية العروسين .

كان الشباب يعرفون طبعه ويحترمونه احتراماً بالغاً ، فهو أستاذهم جميعاً بالمدرسة ، وليس فى البلد كلها متعلم واحد إلا وكان الأستاذ لاشين معلمه .

تذكر ابنه الوحيد محمد . أرسل نظراته تفتش عنه . أخيراً عثر عليه فوق شجرة يعلق أحد الكلوبات . اطمأن . توجه إلى مجلسه بين الرجال .

قبل أن تطل الشمس على الأفق الشرقى ، كان نورها قد عم القرية . تسلل متهادياً ناعماً ، دون أن يحس به حتى المستيقظ ، فإذا الوجود نور . كل شىء ظاهر فى جلاء يعلن عن نفسه .

دبت الحياة فى الكون فرفرف سعيداً بطفولته ، كأنه لم يولد إلا اليوم . بارحت الدواجن الديار إلى الشوارع والحارات ، وزقزقت العصافير . انطلقت فى الفضاء تبحث عن الفطور . خرج الأطفال الصغار ينظرون إلى النهار الجديد فى دهشة . يفتحون عيونهم بصعوبة ويحدقون فى كل شىء . ما أن بدأ الكل فى الحركة ، حتى حطت الكلاب الساهرة أجسادها المنهكة ونامت آمنة .

حين بلغت الساعة السابعة كان لاشين قد انتهى من احتساء قهوته ، وأغلق المصحف وقام فارتدى جلبابه .

دخلت عليه زوجته لترفع الصينية . . قال لها :

- عندما يصحو محمد ، يتوجه فوراً إلى غيط عمه إبراهيم .

- إن شاء الله .

فتح الباب واستقبل اليوم الجديد بشهيق وزفير . حمد الله . بدأ ينقل الخطوات فى مهل إلى أن بلغ المدرسة الوحيدة فى القرية .

تطل المدرسة على الطريق الرئيسى الذى يقسم القرية قسمين ويمضى إلى «مجول» القرية التالية .

لحظة وسمع دمدمة ودبيباً . رفع عينيه إلى الطريق القادم من بنها . رأى الغبار الثائر يتقدم . يعلو ويقترب ، والدبيب أصبح هديرا ودقاً .

بدأت بالونة الغبار الضخمة فى التضاؤل . رقت كثافتها ، ثم ظهر الأتوبيس الحكومى الأصفر المنهك يسبقه لهاثه . بعضه يصطك ببعض . تكاد تنخلع أجزاؤه . المحرك يدمدم فى غضب ساخطاً على الطريق الذى يحشو صدره كل يوم بالتراب ، فيسد منافذه ويكتم أنفاسه . عيشة كلها تراب فى تراب . يهبط ركاب ويصعد ركاب ، والمحرك ماضٍ فى لعناته لايرتاح .

نادى السائق الأستاذ لاشين . حياه تحية الصباح . مد إليه يده بالصحيفة . شكره وزمجر المحرك استعداداً للرحيل .

تحركت السيارة وبدأت بالونة الغبار فى الامتلاء تدريجياً والصعود إلى عنان السماء . اختفت السيارة الغاضبة وفى أثرها رحل الغبار .

دخل لاشين المدرسة . مر على كل جزء فيها مرور البخيل على ماله . الأبواب والنوافذ . الصنابير والحجرات . الجرس والمخزن والسور .

أخيراً جلس فى شمس الفناء يطالع الصحيفة . .

سقطت عليه الشمس تفتش فى ملامحه وتكشفها .

الدراسة لم تبدأ بعد . لكنها عادته طول عمره أن يجىء إلى المدرسة فى نحو السابعة . المدرسة بالنسبة له هى مكان العمل وهى النادى . هى لقمة العيش والتسلية . . هى الحاضر والمستقبل . . هى الشمس والظل والسماء والأرض .

بعد لحظات جاءه الأستاذ صلاح . . مدرس شاب يحب المدرسة كأستاذه . جلسا معاً بعض الوقت . تبادلا الحديث فيما نشرته الصحف إلى أن قال صلاح :

- وبعدها مع خالتى .

- مالها .

- لم ترض أن تأخذ منى ما عرضته عليها .

- وماذا عرضت ؟

- مالاً .

- أنت ابن أختها .. أى ابنها .

- هى لا تريد إلا من أبنائها .

- لكنهم لا يمنون بالزيارة ولا يتفضلون بالعون .

- سلوك عجيب حقاً وشاذ .

- منهم ؟

- ومنها .

- كبرياؤها .

- أنا كما قلت ابنها .

- لكنها أنجبت .

- قالت ذلك بالتحديد .

- ومن أين تحصل على طعامها ؟

- عندها خروف ونعجة ، والنعجة تلد مرتين فى العام وفى كل مرة تلد حملين ، فتبيعهما وتنفق ثمنهما على نفسها وعلى شقيقة العبيطة التى تعيش معها .

- هل هذا يكفيها ؟

- اللّه أعلم .

- من الممكن أن تقوم أمك بالضغط عليها أو منحها المال فهى أختها الوحيدة .

- رفضت عرض أمى أيضاً .

- سأذهب إليها بعد العصر إن شاء اللّه . أما الآن فسأذهب إلى أخى إبراهيم فى الغيط .

- إذا جاء البريد سآتيك به .

- إذا كان يستحق العناء .

يقع غيط إبراهيم قريباً من المدرسة . مساحته ثلاثة أفدنة . أرض ورثها لاشين وإبراهيم والأختان . ارتأى لاشين تركها جمعاً لإبراهيم لينتفع

بها ، إذ إن أولاده كثيرون فضلاً عن زوجة جديدة أصر على الزواج بها منذ عامين بعد وفاة أبيه ، كانت متزوجة بجندى مات فى الحرب الأخيرة .. خلع لاشين جلبابه وأقبل يساعد أخاه فى خف أعواد الذرة .

كان إبراهيم وحده لأن أكبر أبنائه صابر التحق بالجيش يؤدى الخدمة العسكرية بعد حصوله على دبلوم الزراعة .. بعد صابر أنجب إبراهيم ثلاث بنات ثم ولداً لا يتجاوز الآن من العمر ست سنوات .

كانت البنتان الكبيرتان تذهبان لمعاونة أبيهما فى غيطه . لما طلبت فرحانة الزوجة الجديدة أن تذهب إلى الغيط ، انقطعت البنتان أو منعتهما أم صابر .

فرحانة لا تبذل جهداً يذكر فى العمل ، تخاف على جمال ذراعيها ويديها من الشوك وجفاف الأرض وصلابة العيدان وخشونة السيقان . وكانت هذه عادتها أيضاً فى بيت الحاج مصيلحى ، بعد أن تزوجت من ولده شلبى .

ظهر محمد وأمره أبوه أن يحمل عن عمه إبراهيم .

قال إبراهيم : اجلس ياحضرة الناظر .

قال لاشين : أنا لا أجلس . إنها فرصتى للعمل اليدوى قبل الشيخوخة .

انخرط الثلاثة فى العمل . كان محمد طويل القامة جميلاً أسود العينين لأمه ، عريض الصدر ناعم الشعر لأبيه ، وبالرياضة والحركة بدا قوى الساعدين مفتول العضل .

قال محمد : لقد طالت غيبة صابر هذه المرة .

قال عمه : وهل سيطلق المحبوسين إذا عاد .

قال محمد : مهما كان الأمر ، فهو يد تعين .

قال إبراهيم : تقصد : يد تبحث عن النقود ، ويد أخرى تنفقها على أى شيء .. هذا هو صابر .

انحنى لاشين ليحمل حزمة من الدروه . وعندما رفع رأسه . لمح الجمل قادماً من بعيد . وضع الحزمة وتفرغ للنظر إليه .

لم يره منذ مدة . كان لاشين يحب الجمل ويشتاق إليه . يحن إلى التحديق فى عينيه . بدا الجمل من بعيد عالياً كأنه جمل فوق جمل . يسير فى أناة وثقة . تهتز رأسه فوق رقبة طويلة ، يوزع النظرات على الجانبين فى تيه وعزة .

الجمل يسير وحده بلا رفيق أو دليل .. بحركة مهيبة يرفع ساقاً ويخفض ساقاً . يرتفع خفه فى سرعة وينبسط على الأرض فى حنان .

دنا الجمل وقد تدلى من رقبته حبل . اكتشف أن مرعى أصغر أبناء إبراهيم الذى لا يبدو من الأرض هو الذى يقود الجمل العملاق .

تقدم لاشين وأخذ حبل الجمل . نظر إلى الجمل الذى لم يعره التفاتاً . ظلت رأسه هناك فى السماء ولاشين القصير نسبياً يحنى رأسه إلى الخلف ويتطلع إليه فى شوق .

كان يبحث عن الشيخوخة فى ملامحه . هل تغيرت قسمات وجهه ؟ هل ذبلت عيناه ؟ هل تهدل فكه ؟ هل فقد إحدى أسنانه ؟

لم يطرأ أى تغيير .. الجمل كما هو منذ أكثر من عشرين عاماً . أوصاهما أبوهما قبل موته :

- إياكم وبيع الجمل أو إهماله .

يحس لاشين أن الجمل هو أبوه طه وجده لاشين .

شغل كل منهما عن الآخر .. رحلتان متعاكستان . أخذ لاشين الجمل معه وركبه إلى الماضى .. إلى أبيه وجده . إلى الصبر والاحتمال . إلى الهدوء والثقة . إلى التأمل والجلال . إلى العمل الشاق والغناء .

كان عندهم مزارع اسمه محمود شجى الصوت ، كان يعمل طيلة النهار فى الغيط بلا توقف ثم يشرب دورين من الشاى ويعود يتقدمه الجمل . يدور دورة خارج الكفر ، يطلق لصوته العنان . يرسل المواويل

مشحونة بالشوق الحزين . لا يسمعه رجل أو امرأة إلا ذهل عن أمره . وغفل عن حاله ووقف حيث كان أو تبعه .

شغل الجمل عن لاشين . مضى يرنو للأفق والغيطان ، وكأنه يراها لأول مرة .

سأل لاشين : يبدو الجمل كأنه لم يخرج من زمن .

أجابه إبراهيم : من أسبوع .

دون أن يحرك رأسه كان الجمل يرسل الطرف إلى الغيطان وكأنه يطمئن على كل شيء . تمثل للاشين على أنه أبوه صحا من قبره . ليرى هل مازالت الدنيا بخير أم جد جديد . كان الشجر يرقص مغتبطا بأغصانه المورقة ، وكانت البذور التى ألقيت فى غيط جمعة المجاور أول أمس تتمتم بالاخضرار . بدت الأرض كبساط من القطيفة لوبرها همس .

أفاق لاشين من تأملاته على امرأة تتجه صوبهم ، على الطريق الملتوى تمشى . يتقدمها صدر شامخ يرتج فى اعتزاز . تبين حين دنت أنها فرحانة زوجة إبراهيم الجديدة ، تحمل فى يدها لفافة فى منديل محلاوى كبير . . مرات قليلة جداً هى التى وقع نظره عليها . حاول أن يطيل إليها النظر من تحت رقبة الجمل ، لكنه تخلى عن الفكرة فوراً .

كان يعرف أنها إضافة لمزاج إبراهيم فقط ، لاتهتم إلا بزينتها وملابسها . . ها هى تأتى إلى الغيط فى ثوب يصطخب بالألوان . فوق رأسها منديل أزرق ينحسر عن شعرها حتى ليبدو رأسها كله والكحل مس العيون فى مهارة .

مرت بالقرب منه . نزلت عن الحد بزاوية فى اتجاه إبراهيم قالت :

- العواف يا أستاذ .

- عافاك الله يا فرحانة .

ألقى إبراهيم ما بيده وأخذ المنديل . نادى أخاه وابن أخيه . . مضى

الجميع إلى ظل الصفصافة المطلة على الترعة . أسرعت الفئران تجرى فى كل اتجاه .

كانت الصفصافة شجرة سامقة ومورقة . تتدلى أغصانها كضفائر امرأة بالغة الحسن ، والأغصان مكسوة بالأوراق الطويلة الرفيعة كأطراف الصبايا .

فتح إبراهيم المنديل :

- ما هذا ؟

قالت فرحانة :

- طبق الكشك الأخير وقطعة من الجبن .

تساءل إبراهيم فيما يشبه الغضب :

- وأين القشدة وأين البيض ؟

قالت فرحانة :

- قالت أم صابر : لاتوجد قشدة ولا بيض .

تدخل لاشين :

- نعمة يا إبراهيم .. نعمة .

رد إبراهيم وهو يضرب كفاً بكف :

- أية نعمة يا أبا محمد ! طبق كشك من أمس الأول وجبن منذ سنين .

قال لاشين : ابدأ باسم الله واحمد الله . غيرك لا يجدها .

غابت فرحانة لحظات وعادت بالقلة مكسورة الشفة .

وضعتها إلى جوار إبراهيم ثم غابت لحظات وعادت بكوز الشاى .

لحظات وأقبلت أحلام أخت فرحانة .. صبية فى نحو الثالثة عشرة .

قالت لها : أبى يريدك . ضغطت فرحانة على يدها قائلة :

- اجلسى الآن وسوف أصحبك .

جاءهم مرعى بحزمة من الفجل والجرجير ثم جاء بعيدان جافة .

رصها بإحكام وأشعلها تحت الشاى .

جلس مرعى يرنو تارة للجمل الذى مد رقبته إلى الأرض ، وأخذ يمسها مساً خفيفاً بشفته السفلى الممتدة بحثاً عن الحشائش وبقايا عيدان الذرة .

وتارة يدس نظراته فى النار التى تطقطق وكأنها تبذل جهداً كى تسوَى الشاى .

قال لاشين : هيا يا شيخ مرعى مد يدك .

قال مرعى : الحمد لله يا حضرة الناظر سبقتكم .

سمع مرعى الناس جميعاً ينادون الأستاذ لاشين يا حضرة الناظر ، فناداه مثلهم .

قال مرعى وعيناه على النار : الأستاذ صلاح قادم .

قال إبراهيم لزوجته متعجلاً : هيا إلى الدار .

أخذت فرحانة وأحلام طريقاً آخر .

قال إبراهيم : حماتك تحبك .

- وأنا أحب ابنتها .

- هل حقاً تحبها ؟

- وأين هى . . الحظ يعاند .

رد لاشين على الفور :

- مازال الوقت مبكراً كى نتهم الحظ .

قال صلاح بفرح :

- على أية حال أنا أشكر الحظ الذى أحمله إليك فى هذه الرسالة .

- ما هو . . ؟ ليت الإدارة وافقت على اعتماد مبلغ لترميم المدرسة .

- أفضل .

- إنشاء مدرسة إعدادية توفر على الأولاد السفر إلى بنها .

- أفضل .

- قل يا أستاذ . . شوقتنا .

- رقيت ناظراً .

ضحك لاشين :

- هذه ثالث مرة يرشحونى فيها للنظارة وأرفض .

- ترفض !

- نعم . . لأنى أولاً لا أريد أن أفارق البلد .

- لقد عينوك ناظراً فى كفر الحصة .

- ثانياً لأنى أريد أن أظل مدرساً مرتبطاً بالأولاد وعملية تعليمهم وتطوير تفكيرهم ، وبث أسس التربية الصحيحة فيهم ، وهى أهم المراحل فى بناء المجتمع

- هل أنت وحدك الذى ستبنى المجتمع ؟

- أنا واحد من آلاف .

- ليس الكل مثلك .

- على قدر جهدى . . لا أتنازل عن رسالتى مقابل أى إغراء .

- الآخرون يرون أنها رسالة عادية .

- لا يعنينى رأى الآخرين .

- مستقبل البلد فعلاً يرتبط بالمدرسة الابتدائى . لكن المدرس حالته سيئة ويحصل على أقل الأجور .

- هذه هى بالضبط المشكلة .

- والحل .

- أن ينكر ذاته .

- ومن الذى يستطيع ؟

- ابدأ بنفسك .

- لديه الحق أخى حامد فما يزال يدين لك بالأستاذية حتى الآن .

- آه ذكرتنى بالصحفى الكبير ، أنا أحاول أن أقرأ كل ما يكتبه

فى صحيفته . ولكنه مقل .

- لأنه صاحب مبدأ .

- إذا كتبت إليه فسلّم عليه وادعه يخطف يوماً لزيارتنا .

- ليتك تنوى فنزوره نحن فى الجريدة .

كله إلا القاهرة ، داخلها مفقود والخارج منها مولود .

(٤)

قبل أن تطلع الشمس كان إبراهيم فى غيطه يضرب الأرض بفأسه ، ترتفع ذراعاه بالفأس فى الفضاء ، لكن عينيه لاتبارحان الأرض .. كانت نظراته مثبتة فى كتل الطين الجافة والحشائش الذابلة .

لم تكن كل الضربات قادمة من السماء إلافى بعض المواضع الصلبة ، كان يكفى فى أغلب الأحيان ارتفاع الفأس إلى مستوى الرأس المحنية .

الأرض تشتاق إلى ضربات فيها الإصرار وفيها الحنان ، فيها العنف وفيها الدغدغة والمداعبة .

مرت ساعتان كاملتان فى عمل دءوب ثم استقام إبراهيم واقفاً ، شد عظام ظهره وغذى رئتيه بالنسيم العاطر من لثم خدود الزهر وعناق أعواد النبات ، دارت نظراته فيما حوله .

كل شيء كما هو .. تخيل أن الأشجار والطيور تتفرج عليه . والشمس فجأة قطعت مسافة كبيرة فى اتجاه الظهر ، اكتشفت أنه عزق أكثر من نصف المساحة .

تذكر أخاه لاشين وولده محمد .. لاشين ذهب إلى بنها ليشكر مديرية التعليم على النظارة ، ويرفضها كعادته ، ومحمد سافر إلى القاهرة ليتأكد من دخوله كلية الطب ، أما ولده صابر فلم يصل بعد .

عاد للعمل بهمة ثم توقف يفكر فى البلد . كل مافيها فقير : كان يجب أن تقوم الآلات بكل العمل .. المفروض أن تقدم الجمعية التعاونية التى أنشأتها الدولة للفلاح كل ما يحتاج . لكنها الآن لاتعطى شيئاً . مجرد مخزن بشرى .. مجموعة من الموظفين يلبسون الإفرنجى ويجلسون إلى مكاتب ويقبضون الرواتب ويدفعون الذباب ، والفلاح

يتعين عليه أن ينكب على أرضه يدقها ، ويزرع فيها كل أعصابه وصحته لكي تخرج له بعد الشهور المضنية إردباً من القمح أو الذرة .

الآلات أولى أن تفعل ذلك ، أو بعضاً منه . الذين يملكون المال يستأجرون العمال ، ولا يشترون الآلات ، حتى الذين يسافرون إلى الخارج وينوون شراء الآلات يعودون إلى الكفر دون أن يشتروا جراراً أو محراثاً أو دراسة ، وإنما يشترون بيتاً أو سيارة أو ينفقون عن بذخ فى التفاهات إلى أن يفنى المال .

ماذا لو سافرت سنة أو سنتين واشتريت جراراً ، فيخدمنى وأؤجره للآخرين كما قال شاهين ، لا يوجد بالكفر غير جرار واحد وموتور واحد ولا يكفيان لخدمة الكل .

لابد من السفر . معظم أهل البلد يكسبون من التجارة والوظيفة وأعمال البناء فى البندر ، ولا يعتمد الكثيرون منهم على الأرض .. حتى الذين أنجبوا عشرة ذكور .. يدفعونهم إلى الوظيفة والأعمال اليدوية ويحصلون من ورائهم على دخل يومى ، والدولة تطالبهم بتنظيم الأسرة وتحديد النسل ، كيف باللّه يستطيع رجل لديه قلة من الأولاد أن ينتج من أرض تحتاج إلى جهد كبير ومتواصل ، فضلاً عن الصبر على فراغ الجيب .

سيظل الفلاحون يبحثون عن الإنجاب طالما لايجدون الآلات التى توفر الجهد ، طالما لايكسبون بما يكفى من بيع محاصيلهم . لقد هجر الكثيرون الأرض ليعملوا سعاة فى المكاتب ، سواء فى بنها أو طوخ أو حتى القاهرة ولم يبق غيرى وقلة تنطح الصخر ، وتضرب فى الأرض الصماء . لابد من السفر ولا مفر من الاستجابة لعرض شاهين . ليس المهم ماذا أعمل هناك ، المهم أننى سأحصل على المال وساعتها سيتكلم المال ويفعل ما يريد .

قال شاهين إن معه تفويضاً لإحضار عشرين عاملاً ، فلماذا

لا أكون منهم ؟ أنا مازلت شاباً .. سأسافر .. الخيرة فيما اختاره اللّه .. سيحضر شاهين الأوراق معه اليوم من البندر .

انحنى إبراهيم يكمل العزق بعد هذه الراحة الطويلة ، وقد ملأه الأمل حماساً وحيوية ، وكأنه يثبت لنفسه أنه مازال بالفعل شاباً .

فى المساء مد إبراهيم يده بالأوراق إلى أخيه لاشين .

- ما هذا ؟.

- جواز سفر .

- لمن ؟

- لى .

- هل ستسافر ؟

- نعم .

- أين ؟

- السعودية .

- أنت تسافر السعودية ؟

- ألا أصلح ؟!

- لا .. لا تصلح .

- أعرج أو أعمى .

- لأنك غير محتاج .

- بل محتاج .

- ما الذى تحتاجه ؟

- أحتاج المال لى ولأولادى .

أوشك أن يقول له : بل لزوجتك . ولكنه قال :

- لو كل إنسان ترك أرضه من الذى يبقى ليعمل بها ؟ ومن الذى ينتج ؟

- الكل ينتج .

- الكل يفكر مثلك .
- إذن فهو الصواب .
- بل الخراب .
- هذا رأيك .
- كل إنسان لابد أن يتمسك بما يمتلك لأن يتركه لأتفه الأسباب
- إنها أسباب غاية فى الأهمية .
- أنت تسعى لكماليات .
- بل ضروريات .
- أعرفها هذه الضروريات يا إبراهيم . . ولكنك تغضب من الصراحة .
- بالعكس . . قل ما تريد .
- أنت تسافر لتلبية حاجات فرحانة .
- لاشين .
- ألم أقل لك ؟
- هذا كثير .
دخل محمد وقدم لعمه القهوة وجلس .
- أنت يا أبا صابر مالك ولست مستأجراً ، تمضى وقتما تشاء ، أنت تركب ثلاثة أفدنة ولا يأخذ أحد منك حبة قمح .
- أنت تعايرنى .
- يا أبا صابر أنت رجل كبير ، انتبه لأرضك ، وغداً ينهى صابر الخدمة العسكرية ويساعدك .
- صابر لا يحب العمل ، والأرض تحتاج إلى جهد يومى .
- استأجر عاملا.
- من أين أدفع أجره ؟
- سأعمل معك أنا ومحمد .

- أنت وراءك مدرستك ، ومحمد ربنا يخليه عنده الجامعة .
- يجب أن يكون هناك حل من عندك . الحل لا يأتى أبداً من خارج الإنســان .
- لابد من السفر .
- ستموت الأرض بعدك .
- لن تموت سأؤجرها .. هناك من يريدها .
- هناك من يريدها وأنت لا تريدها .
- من يتمسك بالأرض فلا بد له من المال .
- بل لابد له من ذراعه .
- لاتكفى ذراع واحدة .
- فى حوزتك ثلاثة أفدنة ، منها فدان برتقال لايحتاج إلى جهد كبيـر .
- أنت تعلم أنه يحتاج إلى عزق ثلاث مرات فى السنة .
- ازرع خضروات ، إنها تدر دخلاً طيباً .
- لكنها تتطلب نفقات ورعاية متصلة .
- المال معك .. ألا تبيع البرتقال بألف جنيه ؟
- كان .
- الأسعار ترتفع .
- الجنينة شاخت وإنتاجها بدأ يقل ويتساقط لقلة العناية .
- عدنا إذا للعمالة .
قال محمد :
- ولماذا لا تنتظر يا عمى انتهاء عسكرية صابر ليسافر هو .
- الأب يجب أن يواجه الحياة دائماً بدلا من ابنه .
محمد : كل إنسان له دوره .
إبراهيم : لو كان بيدى لدخلت الجيش بدلا منه .

لاشين : هذا ما أفسده ، وجعله لايصلح لشيء .

- إذن لابد من سفرى .

- الأرض تعطيكم يا إبراهيم الحب وكذلك الخضروات والفاكهة - هى مرعى للبهائم التى تعطيكم اللبن والجبن والزبد والوقود .

- إننا ندور فى حلقة مفرغة .

- فكر إذن على مهل ، فربما تجد نفسك على خطأ .

- بل على صواب .

- لاتنس أن لديك بنات يحتجن إلى رعاية .

- بل يحتجن إلى جهاز .

- أنت تريد أن تعلو فجأة .

- ولم لا ؟ .

- يا أبا صابر .

- هات الأوراق .. غيرك يملؤها .

- سأملؤها ، ولكنى أطلب التريث .

- اتفق شاهين مع كل العمال ولم يبق غيرى .

- ماذا ستعمل ؟

- فى البناء .

- حمالاً .

- وهل سأكون مديرا !

- أنت فلاح .. لك مهنتك ، والمهنة شرف . وخيانة أن تغيرها .

- أنت تدفعنى للضحك دفعاً .

- أهكذا . الحديث عن الشرف يضحك .

- المهنة ليست كما تتخيل .

- يا أبا صابر ، طالبنا أبونا أن نكون يداً واحدة ، وعلى كل منا أن يحرص على الآخر .

- لذلك قدمت إليك ، وملء الاستمارات ليس عملاً خارقاً .
- سأملؤها ، ولكن تذكر أنى حاولت منعك .
- لقد حاولت بكل جهدك .
- أنا ضد هذا السفر .. لاتنس .
- أعلم .. لكن ظروفى التى تعرفها جيداً تستدعى سفرى .
- ظروفك أفضل من غيرك ألف مرة .
- من يده فى الماء ليس كمن يده فى النار .
- هات يا محمد القلم .

(٥)

فى الصباح خرج لاشين واستقبل الأتوبيس وتسلم الجريدة . جلس يقرؤها حرفاً حرفاً ، وحين بلغت الساعة العاشرة أيقن أن رجل البريد لن يحضر ، مضى إلى أخيه إبراهيم فى الغيط ، لعل هناك ما يساعده فيه .

إبراهيم وولده صابر الذى عاد متأخراً فى المساء ينزعان شجيرات التيل من على حافة الغيط ، ويلقيانها فى الترعة ، لكى تشرب الماء وتلين .

إبراهيم يترك أعواد التيل فى الترعة أياماً ، قبل أن يرفعها لتجف ، ثم يفتل منها الحبال اللازمة للبرادع ، والسَّلَب لسحب البهائم وقيدها ، أما مرعى فكان يهتم بفتل حبل طويل يعلقه فى شجرة التوت ويصبح أرجوحة لأخته كوثر . تجلس عليه ويدفعها ، فتفرح وتضحك .

شاركهما لاشين العمل إلى أن جاءه الأستاذ صلاح فمضيا إلى خالته الحاجة أسمهان .

قابلتهما شفيقة .. ضحكت فرحاً وهبت واقفة . كان فى يدها رقيقة كبيرة من الخبز الجاف ، عليها طبقة من الجبن القديم . مسحت يدها فى ملابسها ، وهجمت على يد الأستاذ لاشين لتقبلها . أخفى يده بسرعة .

قال صلاح :

- الحاجة هنا .

جرت شفيقة إلى داخل الدار وهى تقول :

- أمْ . . دلَس .

«أى المدرس» .

كانت الحاجة تأوى عندها شفيقة بعد موت أمها ، وزواج أبيها فى البندر . ورفضت الجديدة استقبال شفيقة .

لم تكن شفيقة فاقدة تماماً لقواها العقلية ، ولكنها كانت تعانى من تخلف فى الإدراك والنطق .

تعودت أن تصحو قبل الشروق فتصحب الخروف والنعجة وهما كل ما تملكه الحاجة أسمهان ، فتمر بهما على جسر الترعة ليأكلا حتى الضحى ، وتسقيهما ثم تعود ، تحمل تحت إبطها ما تقدر على حمله من البرسيم والحشائش .

جاءت الحاجة ورحبت بالضيفين . بدت منحدرة إلى أقصى حدود الشيخوخة . البصر الواهن والخطوات الثقيلة . انحنت العجوز ورفعت من آخر الردهة الموقد الكبير وهو قصعة مملوءة بتراب الفرن . حطته أمامهما . بدأت تكسر الأغصان الجافة وتسويها هرماً فوق التراب . مد صلاح يده ليكسر بدلاً منها ، أبت وأشعلت النار .

أحضرت شفيقة إبريقاً أسود به ماء . بدا هو الآخر أسود وقعدت بالقرب منهم تقضم لقمتها .

سألها لاشين عن صحتها ؟

- مادمت أستطيع أن أذهب إلى بيت الراحة فأنا فى أحسن صحة .

رغم تجاوزها الثمانين فقد بدت عظام ساعديها مشدودة وعفية .

قال لاشين : أنت آخر الجيل العظيم .

- كانوا بركة .

- كانوا يعرفون الأصول .

- كانوا يخشوا الملامة . . كل واحد كان يتصرف على أساس ألا يوضع أبداً فى موضع الذم أو المؤاخذة .

قال صلاح وقد قرر أن يدخل فى الموضوع :

- أرى أن الجيل الماضى كان متمسكاً بالتقاليد أكثر من اللازم وهذا مرهق .

قالت الحاجة :

- مرهق لكم .. لولا تمسك القدامى بالتقاليد والواجب ما كانت هناك ناس ، كان الكل قام على الكل وطغى .

قال لاشين : ونحن الآن نرى بعض هذا الطغيان .

صلاح : الطغيان فى كل عصر .

الحاجة : أصبحت البيوت بلا حاكم .. لا كبير يوقرونه ويعودون إليه . حتى العمدة ، كيف يكون له رأى واحترام وهو يجلس مع الشبان ويتفرج على العيال الذين يلعبون الكرة .

لاشين : الحاج راضى رجل طيب .

الحاجة : إنه العمدة الذى يحتكم إليه الناس .

صلاح : فيكم صلابة وعناد .

الحاجة : الصلابة فى الحق .. لو جاع الإنسان أو مرض أو حتى أوشك على الموت لايجب أن يتخلى عن الحق .

صلاح : مفروض .

لاشين : كلام الحاجة سليم . لم يفسد حياتنا إلا تهاوننا فى المبادئ بدعوى التحضر ومجاراة العصر .

صلاح : الحياة فاجأتنا بعنفها وغلائها وسرعتها .

لاشين : لايجب أن يلهيك ذلك عن الأصول .

صبت الحاجة الشاى فى أكواب صغيرة .

الحاجة : ولا تلهيك عن زيارة . مجرد زيارة لأهلك لخمس دقائق ، ثم «اشطح» كما تشاء .

لاشين : كان ولدك «عهدى» عندك الأسبوع الماضى .

ضحكت في أسى :

- كان قادماً يسأل عن بعض أوراق تركها من سنين .

لاشين : وكامل .

الحاجة : أرغمته زوجته على أن يطلق الدنيا ويتفرغ لها فهى ثرية .

لاشين : أما شحاته فهو يزورك كثيراً لقد رأيته عدة مرات .

الحاجة : أسوأهم جميعاً ، يريد أن يحول دارى إلى مخزن أعلاف للدواجن والماشية التى يتاجر فيها .

لاشين : ألا يدفعون لك شيئاً ؟

الحاجة : لاأنال منهم مليماً أحمر .

لاشين : قدمي طلباً لتحصلى من الحكومة على معاش .

الحاجة : الحكومة ليست مسئولة عنى . لقد أنجبتُ أبناء وأنفقتُ عليهم كل ما أملك ، حتى الأرض سلمها لهم أبوهم رغم تحذيرات أبوك ، وباعوها ومضى كل منهم فى ناحية .

لاشين : الإنسان يجب أن يعيش .

الحاجة : يكفينى القليل .

لاشين : لمَ لاتطلبى من أولادك ، ربما استجابوا ويكون هذا رحمة لهم من عذاب الآخرة .

الحاجة : وذل لى فى الدنيا .

لاشين : أكرر طلبى أن تقبلى معاش الحكومة .

الحاجة : لومات أبنائى فسوف أقبله .

استأذن لاشين وصلاح فى الانصراف .

عند دار صلاح ألح على الأستاذ لاشين أن يصحبه لكنه أبى وأكمل طريقه ، وما هى إلاخطوات حتى التقى بسيد بندارى الحلاق .

- ابن حلال ، كنت أفكر أن أبعث لك محمداً .

- وأنا كنت قادماً إليك دون أن تبعث لى محمداً .

جلس لاشين فى الدار مربعاً أمام الحلاق كأنه التمثال الشهير للكاتب المصرى ، وطاف البندارى بفرشاته المغموسة فى الصابون حول ذقن لاشين الذى استسلم تماماً للحلاق .

وبينما كان سيد يمد الفرشاة إلى الشارب وأسفل الذقن حتى العنق وعلى الخدين حتى الأذنين .. قال :

- هل علمت بما حدث ؟
- لا .. لم أعلم .
- لقد أرسل مدير الأمن فى طلب العمدة أمس .
- أعرف أن العمدة كان فى المديرية .
- لكنك لم تعرف الغرض من الزيارة .
- لا .. هل تعرف أنت ؟
- البندارى لاتخفى عليه خافية .
- نعرف هذه . فماذا عندك ؟
- تصور أن مدير الأمن حذر العمدة بألا يستقبل زكى التهامى .
- وما المناسبة ؟
- زكى بصفته سياسى قديم وله وزنه ، يود أن يعود إلى السياسة ، والحكومة لاتريد ذلك .
- وفى حالة دخوله سيقوم بزيارة القرى ومنها كفرنا .
- تمام .
- وهل طلب مدير الأمن ذلك من كل العمد ؟
- ليس هذا فقط .. بل منع أيضاً كبار رجال البلد من اسقباله .
- وإذا جاء الرجل بلدنا وهو يعرف أغلبنا فهل سنغلق أبوابنا فى وجهه.
- من يفتح بابه لزكى سيغلقه بالتالى فى وجه العمدة ويضعه فى موقف حرج مع الحكومة .

- ولماذا تفعل ذلك الحكومة ، مادام برنامجها واضح وهدفها صالح الجماهير .

- المسائل كلها مسائل شخصية .. فى بلادنا الحب والكراهية قبل الواجب والحق .

انتهى سيد من الذقن وعفرها بالبودرة .. ثم شد فتلة من بكرة الخيط ، ولفها عدة لفات فى الفضاء ، ووضع طرفها فى فمه وبسطها فوق خد لاشين ، ومضى يتقدم بفمه ويرجع جاذباً الفتلة فتقتلع الشعر الأصفر والأبيض النابت أعلى الخدين وكذلك فوق الأذنين والحاجبين .

- وماذا فعل العمدة ؟

- لم يتمهل العمدة حتى اليوم التالى أو حتى تجىء المناسبة ، إنما بعث فوراً إلى السيد أبو شعبان والشيخ جبر وعلى بدوى وشيخ البلد وشيخ الخفراء وأفضى إليهم بما سمع . وأضاف أنه فى حالة استقبال زكى التهامى فى أى دار من ديار البلد ، فسوف يتوقف الأتوبيس وحصة السجائر ويلغى مشروع رصف طريق المحطة مع فصل شيخ البلد وشيخ الخفراء .

- لا أظن مدير الأمن يقول هذا الكلام .

- هذه من عنده .

- مع أن زكى رجل طيب وجرىء ومثقف .

- يريدون أن يكون الطريق خالياً لسياراتهم المسرعة .

- وماذا قال الرجال ؟

- قالوا وما دخل زكى التهامى فى السياسة .. لقد توقف عشر سنوات ، لابد له غرض .

- كان الرجل طول عمره بلا غرض .

- هكذا الناس وإن كان بعضهم قال : لقد شاخ وخرف والسياسة ليست لعبة .

- إحم . . يا ساتر .

دخل إبراهيم :

- نعيماً مقدماً .

- أنعم الله عليك .

سوى الحلاق جانبى الشارب ونفض الفوطة وقال :

- عقبال حلاقة الحج .

- ربنا يوعدنا .

مضى لاشين يفكر فى أمر مدير الأمن للعمدة .

وتساءل : لماذا لم يتصل العمدة ليطلب إلىَّ ألا أستقبل زكى التهامى ، ربما لأنه يعرف أنى سأستقبله . لايصح أبداً أن تتراجع الأصول واللياقة أمام السياسة ، هاهم الرجال يرغمون الأصول على أن تفسح المجال للعبة السياسة الخادعة ، ولم تعد السياسة قاصرة على أناس معينين ، لكنه وباء امتد إلى الجميع . . لقد أفسدت السياسة الشعب فمن ينقذه ؟

قال سيد بندارى الحلاق وهو يغلق حقيبته الأسطوانية السوداء .

- هل أحضر لك صورة ؟

- صورة من ؟

- صورة الرئيس . لقد سلمنى العمدة كمية لتوزيعها .

- ومن أين جاء بها ؟

- سلموها له فى المديرية .

قال إبراهيم :

- آه يا بلد .

استأذن سيد فى الانصراف . دس لاشين فى يده بعض القروش .

رفضها البندارى بشدة ، لكنه فجأة توقف عن الرفض ، وأطبق يده ومضى . فى الخارج وقف يحصيها وتمتم :

- كل شيء يتحرك إلا أنا محلك سر .
قال لاشين : هل هناك جديد .
قال إبراهيم : انتهت مشكلة الأوراق وبقيت مشكلة المصروفات .
- طبعاً تلزمك مصروفات كثيرة .. ألم تكن مستعداً .
- في الحقيقة لم أكن مستعداً .. كل ما فكرت فيه هو السفر .
- أنت تعلم أني أنفقت كل ما ادخرته على زواج البنت .
- أنا أعرف يا أبا محمد .. أنا فقط آخذ رأيك في بيع الجمل .
- مستحيل .
- الجمل لانفيد منه .
- ولو .. هل يضايقك وجوده ؟
- أبداً .
- فكر وتصرف بعيداً عن الجمل .
- إذن أبيع عدة قراريط من الأرض .
- لا يحق أن تبيع منها .
- لماذا ؟
- لأن التركة لم توزع والأرض مازالت ملكنا جميعاً .
- سأبيع من نصيبي .
- أين نصيبك ؟
- هذا ما جئت من أجله .
- وأنا لاأريدك أن توزع الأرض .
- شيء غريب . ألا تريد أن تأخذ نصيبك .
- لا .
- أنا أريد .
- هذا قطع للصلة .
- هل تنقطع الصلة إذا وزعنا الأرض .

- أرجوك يا إبراهيم . ليبق كل شيء على ما هو عليه . وتصرف من أي طريق .. زوجتك الجديدة تملك ذهباً كثيراً .. بعه .

- حاشاى أن أفعل .

- تقصد أنها سترفض .

- لا داعى لهذا الكلام . أنا ذاهب . شكراً لك .

- اجلس يا إبراهيم .. لم نحل المشكلة .

- أنت دائماً تعقد الأمور .

- أنا فقط أضعك أمام مصيرك .. أعرفك ظروفك .. من الخطأ أن يترك الإنسان ظروفه ويبحث عن ظروف أخرى . أسهل شيء أن نبيع .

- لقد فكرت قبلك ولم أجد غير بيع عدة قراريط .

- لم يحدد نصيبك .

- فليحدد .

- أنصحك أن تبحث عن شيء آخر .

- حتى الجاموسة والعجلة ترفض أم صابر بيعهما .

- والحل ؟

- لابد من بيع الأرض . سلام عليكم .

هب غاضباً . نادى عليه لاشين مرات بلا فائدة .

(٦)

استولت الأفكار على لاشين وحاصرته الوساوس حتى خنقته ، ولم يجد من سبيل للبت فى الأمر إلا بزيارة أختيه وأخذ رأيهما .

رحبت الأختان بفكرة التقسيم وهونتا عليه الأمر ، أوضحتا أنها مسألة بسيطة ومريحة لجميع الأطراف ، ولاتدعو لحيرته وضيقه ، وليس فيها ما يعد خيانة لوصية الوالد .

عاد لاشين - برغم رأى أختيه - مُشتت الذهن شارد اللب ثقيل الخطو . اختار لنفسه طرقاً مظلمة تأخذه إلى الدار .رفع رأسه إلى السماء فرأى على صارية الليل قمراً ضالاً تألقت فضيته كصخرة من ملح . مضى إلى حجرته رافضاً الطعام . انحط على السرير وسرعان ما غاب فى نوم عميق . شابه غطيط عال .

***

قرر لاشين أن يذهب إلى أخيه الذى قضى ولا ريب ليلة تعسة . حرص أن يطيب خاطره ، كان يعلم أن إبراهيم عاطفى إلى حد كبير ويسهل التأثير عليه ، ما أسهل أن يتخلى عن الأخوة والصداقة ولو مؤقتاً إذا سيطر عليه الغضب . فجأة ينسى كل شىء جميل كان يربطه بهم .

دق الباب . فتح له مرعى . دخل لاشين . مر بأم صابر وهى تغلى ماء فى وعاء كبير أمام الحظيرة . قاد مرعى عمه إلى أبيه الذى كان يشرب القهوة فى حجرة الأولاد . فجأة صرخت أم صابر فى هلع . رأى الجميع الجمل وهو يخرج مسرعاً من الحظيرة . أطاح بالوابور والوعاء ، وانسكب الماء المغلى فوق أم صابر ، قفز مرعى نحو الجمل فوقع فى الماء يصرخ ، وسرعان ما هب واقفاً وكأن روحه معلقة بالجمل .

أسرع في إثر الجمل لاشين وإبراهيم ، الجمل لا يتوقف ولا يخفف من سرعته بل يتدفق في جريه دفقات عملاقة .

الوقت مبكر والناس قلة . كانت رأس الجمل تعلو الأشجار ، وسيقانه تطول وتطول وهو يعلو وتتسع خطواته . فجأة ظهر مرزوق يشق الفضاء بالبلدوزر . ويركب الطريق كله . فزع لاشين وإبراهيم . سيسحق مرزوق الجمل بآلته الجهنمية . . دنا منه مندفعاً ومال عنه في آخر لحظة وتجاوزه فسكنت القلوب الثائرة لحظات ، ولم تتوقف الأقدام المسرعة .

مضى الجمل في الطريق الزراعي المؤدى إلى المدينة حتى بلغ السكك الحديد . كان المزلقان مغلقاً لقدوم قطار ، وقف الجمل يرنو للقضبان الحديدية والطريق البعيد الذى يعج بالحركة ولا تتوقف فيه السيارات . بدا عليه الانبهار .

تساءل الجمل عن وسيلة عبور المزلقان ، فبعده يمتد الطريق السريع ، كيف سيمضى وسط هذه المخلوقات الحديدية المندفعة !!

اطمأن إبراهيم ولاشين حين لاح لهما المزلقان مغلقاً . تلفت نحوهما الجمل . . كانت عيناه بئرين من لهب . تطل من شدقيه رغوة الغضب . . دمدم القطار من بعيد وتدريجياً علا زئيره . فجأة عبر الجمل المزلقان محاولاً الفرار من القطار . دقت حوافر الرعب على أسفلت القلوب المرتعشة دقات منذرة وهادرة . كان القطار قد وصل وهو ماض في سرعته دون أن يتوقف على محطة البلدة . . سحق الجمل .

صرخ لاشين وتعثر ، زعق إبراهيم . .

تلاشى الجمل وتمدد لحمه على الأرض وأغرقته دماؤه . . لعنوا القطار المندفع . . وجلس الثلاثة على الأرض .

دمدم قطار جديد . فهب لاشين فزعاً .

***

أشرق الصبح ولاشين يدق باب أخيه .

جلسا يشربان القهوة . ابتدره لاشين بسؤال عن الجمل .

قال إبراهيم : بالداخل كالجن . . أكل ومرعى ، وقلة صنعة .

لاشين : أرجو ألا تكون قد غضبت منى .

قال إبراهيم : نعم غضبت ، لكن أم صابر عندما رأتنى فهمت ، وقالت لى إياك أن تغضب من أخيك .

- وهل قلت لها ما دار بيننا ؟

- لا ، لكنها هادئة ولديها فرصة كى تفكر فى كل شىء جيداً .

- وافقت نظلة وشلبية .

- وهل كنت تتوقع أن ترفضا ؟ إنهما ينتظران هذا اليوم .

نال لاشين فداناً وإبراهيم فداناً وكل أخت نصف فدان ، وباع إبراهيم من نصيبه أربعة قراريط ، وأعد كل مايلزم السفر الذى تحدد بعد أسبوع .

قالت له : إذن لابد أن أستحم فى مياه شفيقة قبل سفرك .

- هذا لا يكون أبداً .

- من أجل خاطرى يا إبراهيم .

- مستحيل .

- سأقتل نفسى لو لم يتم هذا .

- يا مجنونة . . هذه المسائل بيد الله .

- اسع يا عبد وأنا أسعى معك .

***

انطلقت فرحانة إلى شفيقة عند الحاجة أسمهان . لم تجدها . طافت بالقرية كلها ، حواريها وشوارعها وغيطانها تبحث عنها وتنادى عليها بأعلى ما تستطيع ، لو كان ولدها نفسه هو الذى اختفى ما بذلت من أجل استعادته ما بذلت .

لقيتها أخيراً في أحد الغيطان تأكل رءوس اللفت .

قالت لها : تعالى يا شفيقة أحمِّيك .

هبت شفيقة واقفة فى فزع .

- تعالى يا بنت أحميك ، لتصبحى جميلة وأمشط لك شعرك المتسخ ، وألبسك ثياباً جديدة وأضع لك الكحل فى عينيك والطلاء فى أظافرك .

كلما ذكرت موضعاً تاملته شفيقة وتخيلته بعد التحسينات ، ورويداً رويداً انبسطت أساريرها ، لكن حين مدت فرحانة يدها إليها ، هزت رأسها رفضاً .

عاودت فرحانة المحاولة ، لكنها لم تحظ بغير الرفض . وجنت فرحانة :

- البنت الجاهلة لا تريد أن تستحم . . شيء غريب . لابد أن تستحم غصب عنها ، كانت شورى غبرا . . تعالى هنا ، قدامى إلى الدار . لابد أن تستحمى . أنت لم تستحمى منذ ولدتك أمك .

دقت شفيقة قدميها فى الأرض فلم تتحرك . بدت كشجرة جميز راسخة لا تهتز .

فوجئت فرحانة الفتية العفية بأن البنت البلهاء متينة وصلبة . رجحت أن العنف لن يجدى معها .

جربت الحيلة . هدأت شفيقة واسترخت وهى تستمع إلى كلمات فرحانة ، والعالم الذى ترسمه لها .

قالت لها :

- إن العمدة نفسه حين يراك بعد أن تستحمى سيقول : من هذه البنت الجميلة . لابد أن أخطبها لولدى عبد القادر .

انتشت شفيقة عندما سمعت رأى العمدة فيها ، وأخذت فكرة عن مستقبلها المشرق ، لكنها نسيت الموضوع فجأة ، وانحنت تجمع

بقية اللفت الذى انتزعته من الأرض وولت الأدبار . وفرحانة فى أثرها ، فقد قررت ألا تنام دون أن تستحم فى مياه شفيقة .

دقت فرحانة باب الحاجة أسمهان . طلعت عليها الحاجة متسائلة . اضطرت أن تعترف لها بالموقف كله وختمت قصتها بأن روحها فى يدها . . كان صوتها متهدجاً . . قالت الحاجة أسمهان :

- تبحثين عن الذرية . . يا خيبتك .

تذكرت فرحانة أن الحاجة تعانى من أبنائها ، لذلك لن تتحمس لمشروعاتها الإنجابية ، لكن لأن الحاجة لا تميل إلى الثرثرة ، فقد نادت شفيقة وأمرتها أن تصحب فرحانة ، وتمتمت دون أن تبذل أية محاولة لخفض صوتها :

- نساء بلا طعم .

اختفت شفيقة لحظات ثم ظهرت . مضت فى إثر فرحانة تقضم رأساً من اللفت .

عند باب دار إبراهيم ، رفضت الدخول كالبهيمة التى تدخل داراً لأول مرة ، جرتها فرحانة إلى حجرتها ، ورأتها البنات . . رددن معاً :

- العبيطة أهه . . العبيطة أهه .

علمت أم صابر بوجود شفيقة فغلبتها الدهشة ، لكنها لم تهتم . . كانت تعجن . . لكمت العجين وكأنها تقول له :

- أنا معك والالتفات لغيرك مضيعة للوقت .

كان على فرحانة أن تخلى الدار تماماً .

أين هو الآن إبراهيم ليصرف أم صابر أو يجرها معه إلى الغيط . لكنها تعجن ، ولو قامت القيامة ، فلن تترك أم صابر عجينها . قررت أن تذهب إلى دارهم . أبوها لاشك بالدار فقد هدَّه الروماتيزم ولا يتحرك . وأمها فى الغيط ومعها أحلام ، وأخوها عامر فى المصنع . ستكون الدار خالية إلا من أبيها . . كيف ستشرح له الأمر . .

ضربت فرحانة الهواء غاضبة .

لماذا لم ترتب الأمر وتستعد له ؟ صعب عليها الآن أن تترك شفيقة .. قادتها إلى دار أبيها وقبلها بأمتار ، قالت لها :

- قفى هنا ولا تتحركى نصف خطوة وإلا كويتك بالنار . إياك أن تذهبى ، سيكون آخر يوم فى عمرك .

فى هذه اللحظة ، لم تكن فرحانة تخشى الموت ولكنها تخشى ذهاب شفيقة . أسرعت إلى أبيها . وجدته فى حجرته الداخلية وحيداً يكح .. سلمت عليه وقبلت يده . أخبرته أن عندهم ضيوف وهى فى حاجة إلى أن تغسل رأسها ، وستصعد إلى قاع السطح حيث تربى أمها الأرانب .

عادت إلى شفيقة التى كانت تستعد للفرار . دفعتها إلى السطح دفعاً وأمرتها بالجلوس فى ركن من أركان القاعة .

بدأت العمل بنشاط .. أوقدت الباجور الجاز وأحاطته بالحمالة الحديد وفوقه صفيحة ضخمة ممتلئة بالماء.. تذكرت أن أم لبيب قالت لها :

لابد ألاَّ تُبقى شعرة واحدة فى جسم شفيقة سوداء أو صفراء إلا شعر رأسها . نفثت فرحانة الهواء فى عنف غضباً وسخطاً على هذه الشروط التافهة ، لكنها كانت تطمع فى النتيجة الحاسمة .

بدأت فى إعداد الحلوى التى ينتزع بها النساء زغب الشعر من أجسادهن ، وعندما مدت فرحانة يدها لتنضو عن شفيقة ملابسها لتمثل أمامها عريانة ، فزعت شفيقة وقفزت فى هلع . تذكرت فرحانة الشائعات التى تؤكد أنها تدخر مالاً حول خصرها . إذن فقد صدق الناس فيما ادعوه، هاهى ترفض التنازل عن ملابسها ، كأنها تخفى أسرار العالم أو كأنها ستموت بعد الخلع مباشرة .

أشفقت عليها فرحانة ، وأقسمت ألا تؤذيها ، وأنها سوف تحفظ لها

كل ما تملك ، لاداعى للخوف منها أو الشك فيها . وأخيراً سمحت لها بأن تعريها ، هدأت ثورة فرحانة الداخلية باجتيازها عقبة فى طريق التجربة المصيرية ، لكن ذلك لم يشغلها عن التطلع بشغف إلى الجسد العريان ، وكأنها كانت تعتقد أن شفيقة ليست كباقى البشر ، ربما تكون بثدى واحد مثلاً أو ربما بثلاثة ، بدون سرة أو فرج .

لازالت هناك مرحلة تالية أهم وأخطر ، عليها أن تقنع شفيقة بقبول نزع الشعيرات الكثيفة فى بعض المواضع من جسدها البرى الذى يضطرب ، ربما لأنه يواجه العرى لأول مرة .

بذلت فرحانة جهداً خرافياً حتى يتم هذا العمل الرهيب ، لكنه تم ، وعادت فرحانة إلى إبراهيم لتقول له :

- إن الأيام المتبقية فيها خلاصة عمرى .

وحانت لحظة السفر ، وفى غمرة احتدام المشاعر الأولى للفراق ، اتجه إبراهيم إلى السيارة التى ستنقله إلى المطار ، وهو حالم لا يصدق أنه أخيراً سيتخلص من الأرض ، الأرض التى كبلته وأكلت من عمره . إنه الآن يولد من جديد ، وسيعود لاشك إنساناً آخر ، يحمل شارات المجد والثراء .

كانت أم صابر كعادتها صامتة ، ترنو إليه وهى تذكر نفسها بأنها بذلت ما تستطيع لإقناعه بالبقاء ، فى قرارة نفسها الآن استعداد لوحدة أبدية . فالذى يذهب عادة لا يرجع ، ماذا كان بوسعها أن تفعل إزاء القدر الكبير من العناد الذى يتفجر بداخله ، ورفضه الدائم لما هو قائم وتطلعه للمجهول .

عانقه أخوه لاشين بحرارة ، وود لو يحتفن بعضاً من تراب الأرض ويعلقه بقلب إبراهيم النافر ، وأخيراً أطلقوا سراحه ، فانطلق العصفور يعلو متخلصاً من الأرض محاولاً أن يحرمها حتى من مجرد أن يسطع عليها ظله الراحل .

(٧)

بدأ العام الدراسي وفتحت المدارس أبوابها للتلاميذ ، اكتست شوارع القرية ملامح جديدة إذ خرج الأولاد والبنات في أرديتهم الموحدة . كل حارة قدمت للشوارع عدداً من الأطفال يحملون حقائبهم وأكياسهم . خروج الأولاد يضطر الأهل جميعاً إلى الاستيقاظ ، وكيف تنام أم سيخرج ولدها الصغير إلى المدرسة ، وهو يحتاج إلى الاغتسال وارتداء الملابس والفطور ؟ ويستيقظ مع الأم الأطفال الصغار الذين تقل أعمارهم عن سن الدراسة ، فأغلبهم ينام في حضن الأم ، وسرعان ما يستشعر غيابها بانحسار الدفء عن ضلوعه .

عُين للمدرسة ناظر جديد يصغر لاشين . جاء في زيارة سابقة قبل بدء العام ، تلقى من لاشين فكرة عن عدد التلاميذ وعدد المدرسين وأسمائهم ، وتسلم جدول توزيع الحصص على الفصول حسب إمكانيات المدرسين وظروفهم ، بحيث أبقى لاشين لنفسه وللأستاذ صلاح السنتين الأولى والثانية .

كان المعلمون الشباب يتهربون من التدريس للسنة الأولى والثانية ، لأنهما أصعب سنوات التعليم والطفل فيهما لايزال محدود الفهم ، مازال مرتبطاً بالأسرة ، محباً للعب ، غير عارف بالقراءة . ولا بد من تيسيرها له ، بل والقراءة بدلاً عنه ، فلابد أن يكون هناك من الصبر وسعة الصدر لدى المعلم ما يمكنه من أن يسقيه العلم ، دون الاعتماد على الطفل في شيء يذكر ، اللهم في عمل واجب بسيط ، هو نقل بعض الكلمات كما هي ، تطويعاً لليد الصغيرة وتدريباً لها على التحكم في القبض على القلم .

كان المعلمون يدينون بالجميل للأستاذ لاشين لأنه يحمل عنهم هذا العبء ، يرون في سلوكه ما يدعو للعجب لأنه كرجل كبير السن لابد أن يبحث عن راحته بالتدريس للكبار . لكن حبه للأجيال الجديدة ، ورغبته في أنه يكون هو مفتاحها إلى المستقبل ، تدفعه إلى أن يتولى أمرها بنفسه ولا يتركها لشباب عصبي غاضب ومتعجل ، فضلاً عن انشغال هؤلاء الشباب بأنفسهم أكثر من انشغالهم بالرسالة المقدسة .

دخل الأستاذ لاشين على تلاميذ السنة الأولى ، كان يعرفهم جميعاً إلا قليلاً وكلهم بالطبع كانوا يعرفونه .. ضحك في وجوههم .. كان يحب - حتى أصبح الحب عادة - أن يضحك في وجوههم .

قال : صباح الخير .

قالوا جميعاً في صوت واحد : صباح النور يا أستاذ .

كاد من فرط سعادته أن يقول : اللّه .

أصوات الأطفال سيمفونية بالغة العذوبة . زقزقة عصافير منتشية بجمال الطبيعة ووفرة الرزق ، آية مؤثرة من القرآن يتلوها مقرئ رائع الأداء رخيم الصوت .

تغلغل فيه نشيد الأطفال للصباح ، كما تتغلغل زغرودة صبية معلنة خبراً مفرحاً في قلوب تهفو للبهجة وتنتظر بالأمل .

قال الأستاذ لاشين :

- هذه الحصة حصة عربي . ويُقصد بها تعلم الكتابة ، فأنتم طبعاً تتكلمون .. أم فيكم من لا يتكلم ؟!

- كلنا نتكلم يا أستاذ .

لابد إذن أن نتعلم كيف نكتب هذا الكلام على الورق ، والكلام الذى نتكلمه كالقطار .. هل تعرفون القطار ؟

- نعرفه يا أستاذ .

- القطار طويل ويتكون من عربات كثيرة .. كذلك الكلام طويل ويتكون من عدة حروف .. وسنبدأ اليوم بتعلم هذه الحروف .. حروف كلامنا العربى ثمانية وعشرون .. أول حرف هو حرف الألف كما فى مثل كلمة أمل وأب .

انظروا وكتب على السبورة .

- ما رأيكم فى هذا الألف ؟

- حلو يا أستاذ .

- عظيم .. تلاحظون أن حرف الألف مستقيم .. أليس كذلك ؟

- نعم يا أستاذ .

- أول حرف فى الكلام . مستقيم أو «عدل » ، ولابد أن يكون الواحد منا مستقيماً كما الألف .. يمشى فى الشارع طوالى إلى المدرسة ، أو إلى البيت .

أول حرف هو الألف .. وما هى حال الألف ؟

- مستقيم يا أستاذ .

- تمام .. تعالى يا سليم .. اكتب الألف على السبورة .

طلع سليم وكتب الألف على السبورة ، وطلع شلبى وفهمى ومغاورى .

انتقل الأستاذ إلى الباء وقربها إليهم ، وطلعوا فكتبوها .

شجعهم من أول يوم على السبورة والطباشير . لاشىء أمامهم صعب ولا شىء مستحيل .

فى نهاية الحصة قال :

- من الذى لم يفهم ؟

- فهمنا يا أستاذ .

فى حصة الحساب عرفهم أن أول رقم هو الواحد وهو أيضاً مستقيم ، مثل قضيب القطار وعود الذرة وعمود النور والنخلة ، ولا يميل أبداً

ولا ينحنى . بعد الحساب اصطحبهم إلى الشارع ، قال لهم :

- سنمشي إلى المحطة .. مسافة كبيرة لكن يجب أن نمشيها ، ويجب أن نمشي في خط مستقيم كالواحد والألف . الرأس مرفوعة . خذ نفساً عميقاً . لا تدفع الأحجار بحذائك ولا تغترف التراب .

هذه الترعة وأية ترعة لايسمح لأحدكم أن ينزل إليها أو يمس ماءها بإصبعه ، والذى أراه أو يبلغني أنه نزل إليها سيضرب ويبيت وحده في المدرسة . إياكم والترع .. لن أضرب إلا من ينزل الترع أو يسب الناس .. هل تسمعون .. المفروض أن من يدخل المدرسة ، سيعرف عنه الناس أنه أصبح مؤدباً فلا يصح أن يسب ولا أن ينزل الترعة .

ومن يسمع الكلام وينتبه للدرس فسوف يسافر معنا عندما نسافر ، ويخرج معنا عندما نخرج ، وسنقدم له الحلوى .

هل تسمعون ؟ .. ارفعوا رءوسكم . لا تحنوها أبداً . ماذا ترى يا بدوى أمامك ؟

- طفل يبكى يا أستاذ .

- توقفوا .. اذهب إليه يا بدوى واسأله عما به وساعده إذا كنت تستطيع .

ذهب بدوى إلى الولد . سأله وعلم منه أنه كان يجرى خلف أمه يريد صحبتها ، لكنها سبقته ووقع منه القرش .

أبلغ بدوى الحكاية للأستاذ .

قال لهم : ما رأيكم ؟

- نبحث له عن القرش يا أستاذ .

- هيا ابحثوا .

انتشر الأولاد في الطريق .. بحثوا عن القرش في حماس كأن من يجده سيأخذه لنفسه . سرعان ما وجدوه وقدموه للولد الذى توقف عن البكاء ، كأن أمه عادت إليه ، ثم جرى في اتجاه الكفر .

- انتظموا من جديد .

اصطف الأطفال وتابعوا السير . بلغوا المحطة . التفت إليهم الأستاذ :

- كوِّنوا صفاً واحداً ومستقيماً .

علمهم بعض التمرينات البسيطة ، ثم مدوا أيديهم إلى الأمام ومر عليها .. نبههم إلى قص الأظافر وغسل الرءوس والعيون جيداً بالماء والصابون .

نفس عميق مع تحريك الذراعين بسرعة في كافة الاتجاهات . ثم عادوا .

قال : الإنسان لا يمشي في الطريق أعمى .. لابد أن يلاحظ كل شيء ويعرف كل شيء ، وإذا لم يعرف يسأل ..

- ما هذا النبات يا محمد ؟

- فول يا أستاذ .

- وما هذا النبات يا خميس ؟

- هذا قمح .

- هل ترون الماسورة الكبيرة التي تصب الماء في المصرف ؟

- نعم .

- من أين يأتي هذا الماء .

- إنه الماء الزائد عن حاجة الأرض بعد أن تشرب .

تتوالى الأسئلة عن كل شيء حتى الألوان والروائح ، وعن الحشرات والطيور واحترام الوالدين ومساعدة الناس .. وتتوالى الإجابات .

قبل المدرسة بخطوات كانت سيارة الدكتور محمد الأشوح الطبيب البيطري ، مغروس عجلها في كومة رمال أمام دار البهنساوي . والطبيب يدور حولها ، يدفع فيها من هنا فلا تتحرك ، ومن هناك فلا تتزحزح ، ثم يدير المحرك فتدور العجلات بعنف مكانها ، وتقذف الرمال إلى كل جهة ، ولا أحد أمامه يبدوا في الأفق . تمنى الدكتور محمد في هذه

اللحظة أن يأتى مرزوق بالبلدوزر الذى يقوده ويسحبها من هذا البئر الرملى ، لكنه فى قرارة نفسه كان يشفق على السيارة من جنون مرزوق ، فلوقدر له أن يجرها فسوف ينزعها من قبرها الرملى نزعة تلقى بها فوق السحاب .

قال الأستاذ لاشين : يكفى يا دكتور .. صف أول ثالث .. هيا .. صف أول ثالث .. ادفعوها .

أحاط بها الأولاد ، كالنمل أحاط بقطعة سكر أو جثة صرصار كبير .. خرجت السيارة من الرمل وأسرعت تبتعد والطبيب بداخلها يلوح ، والكل يضحك .. بينما خرج الناظر يقول فى غضب : اللّه .. اللّه .

ما هذا يا أستاذ لاشين .. أدخل الفصل فأجده فارغاً إلا من المكاتب والحقائب ولا أثر لكم فى المدرسة ، تغيبون عن عينى حصة كاملة ، وها أنت ترغم الأولاد على دفع العربات وكأنهم سيصبحون عمالاً فى جراج أو موقف .

ضحك لاشين وجن جنون الناظر .

قال لاشين للأولاد : هيا إلى الفصل .

دس ذراعه تحت إبط الناظر ليصحبه الخطوات الباقية إلى المدرسة ، لكن الناظر تخلص منه فى ثورة .

- لا .. أنا أعرف هذه الأساليب وهذه الألاعيب . عيب عليك وأنت فى هذه السن .

- صبراً .. صبراً فسوف أشرح لك .

- لقد صدق إذن ما قالوه .

- وماذا قالوا ؟

- قالوا : مدرسة عابثة ومدرسون مستهترون .

- قال ذلك الجالسون على المكاتب . دعنا منهم .

- إنك تضرب بالقوانين عرض الحائط .

- نسيت أن أخبرك أنى أحب أن تكون حصة الألعاب فى الهواء الطلق .

- أليس فى المدرسة فناء ؟

- الحق أنها ليست فى نظرى ألعاباً بالمعنى المفهوم ، ولكنها احتكاك مقنن بالشارع وتحت إشرافى .

- خارج المدرسة مسئولية .

- الطريق آمن ولا خطر عليهم .

- هذا عرف جديد .

- أنا حر فيه مادمت مسئولاً عنهم .

- وهل مسئوليتك تخول لك إجبارهم على دفع سيارة صديقك .

- لا .. يبدو أنك رجل معقداً .

- الذى يبحث عن الاحترام يكون فى نظرك معقداً .

- الشجاعة والشهامة قبل العلم .

- اشرح لهم ذلك داخل المدرسة .

- الشجاعة لا تشرح ولا تعلم ، بل تنفذ وتمارس وتربى .

- هناك قواعد .

- لست ضدها .

- فعلك يضيع هيبة المدرسة وهيبة الوزارة .

- كل ذلك على العين والرأس ، لكن بعض التغيير فى الأساليب لتوعية التلاميذ لا يضر .

- سأوقف هذا التغيير .

- وأنا سأستمر فيه .

- لنر .

كتب الناظر مذكرة حامية إلى مدير المديرية توصى بإنقاذ التعليم

من الشواذ والخارجين .

بعد أسبوع وصل المحقق وكتب مذكرته ، وبعد أسبوع آخر تسلم الأستاذ لاشين خطاب من المديرية بلفت نظره إلى ضرورة مراعاة القواعد التعلمية الراسخة ، وفى حالة مخالفتها مستقبلاً ستتخذ بشأنه إجراءات أشد .

كان الأستاذ لاشين من سعة الصدر بحيث لم يغضب من لهجة الخطاب . بل لم يعبأ بالخطاب ثقة بما يقوم به .. لقد زهد فى الأغراض الدنيوية الفانية التى تجىء على حساب المبادئ والصحة ، أهم ما يشغله تلك اللذة التى يجنيها من أداء الواجب ، وتوصيل الرسالة إلى العقول حتى لتبدو أفكاره على وجوه التلاميذ وسلوكهم .. بل إنه يراها تمشى فى الكفر وتنتقل إلى كل مكان .

مضى الأستاذ لاشين فى طريقته وأيده صلاح عزب ابن بلده ، كذلك فعل الأساتذة الوافدون من البلاد الأخرى للتدريس فى المدرسة .. ومع الأيام زاد احترامهم له وتقديرهم لشخصيته حتى أصبحوا آلياً يتصرفون مثله ويفعلون مثل ما يفعل ، وبدا واضحاً أن الناظر من طينة أخرى ، وأن الوقت الذى يقضيه معهم يأخذ من أعصابه ، ولا مفر من أن يتحمل غربته وعزلته حتى ينتهى العام .

طلبت فرحانة من شادية الابنة الوسطى لإبراهيم أن تنام معها ، ووافقت أم صابر على الفور ، جاء هذا العرض فخلصها من القلق الذى استبد بها ، خشية أن يركب ابنها صابر عفريت الشباب وجموحه ، فيسعى إلى فرحانة فى الليل ، دون أن يدرك حجم جريمته ، وتنسيه شهوة الرجال المجنونة أن فرحانة زوجة أبيه .

كان البيت عموماً فى حالة استقرار وهدوء ، بل كانت حالته أفضل من أيام إبراهيم .. أصبحت الأمور تسير فى نعومة ، على الأقل لأن فرحانة لم تكن لديها الفرصة كى تغار على إبراهيم ، لم يكن فى البلد حتى تبحث عنه وتهمل بعض ما يناط بها عمله ، انشغالاً بزينتها العاجلة من أجله ، بدت كأنها كبرى بنات أم صابر . كانت تصرفاتهم فى الأغلب تتم بانتظام شديد ، وكأن رب البيت موجود . الكل ماض فى طريقه ، ولايشذ غير صابر الذى أكثر من التغيب عن الجيش وأكثر من السهر مع متولى .

متولى وحيد أمه التى بذلت كل جهدها كى يكون فاسداً ، وساعدتها عدة عوامل كى تجعل من متولى ذلك الشاب المستهتر ، منها وفاة أبيه مبكراً ، تاركاً لهما خمسة أفدنة برتقال وتين تدر ما لايقل عن أربعة آلاف جنيه فى السنة ، دون أن يرفع متولى فأساً أو يفتح قناة أو يهذب شجرة أو يجمع ثمرة .

أمه بالوراثة مبذرة ، أخذت عن أمها حب الأكل والضحك والسفر .. ونشأ متولى ثمرة ناضجة لهذه الشجرة ولهذه الظروف .

كل حياته إنفاق فى إنفاق ، وهذا ما دعا عدداً كبيراً من الشباب للالتفاف حوله ، والسير فى ركابه والتمتع بمباهج أمواله وفى مقدمتهم صابر . وهم له عزوة وحماة وخدم .. هم بإيجاز جنوده المرتزقة .

آخر اكتشافاته مشاهدة أفلام الجنس التى تعرض فى مقهى الزتحرى فى عزبة القرود .

عزبة القرود امتداد عمرانى لمدينة بنها ، وكانت فى الأصل منطقة خالية إلا من الغيطان وبعض الخيام للأعراب ، منازل من الطين والصفيح لعدد من أصحاب القرود ، الذين يطوفون بها فى المدن والموالد والأحياء الشعبية .

حين يرد ذكر المنطقة على الألسنة .. يقال العزبة التى بها القرود .. عزبة القرود .

وبعد أن رحل هؤلاء القرداتية ، وتسلل إليها العمران وامتد ، وارتفعت العمائر والمساجد ، وأخذت المنطقة زخرفها ، وحتى بعد أن اختار لها مجلس المدينة اسما جديداً وهو عزبة النور إلا أن الكثيرين حلا لهم أن يحافظوا على التراث المنقول إليهم وهو اسمها التاريخى .. عزبة القرود إرضاء للرغبة الكامنة فيهم للتندر والفكاهة .

وفهمى الزتحرى صاحب المقهى ، لم يقنع بالدخل الذى توفره له . رغم أن عمال البناء لا يتركون فيها كرسياً خالياً . اشترى جهاز «فيديو» ، وضعه فى قاعة خاصة وراء المنصة ، يسلك الرواد الطريق إليها عبر دورة المياه ، وهى قاعة شبه سرية يعرض فيها على التلفزيون الضخم أفلاماً جنسية بالغة الفحش ، وقد اكتشفها متولى الذى وهبه اللّه قرونا عجيبة للاستشعار من بعد ، يستطلع بها مصادر المتعة وطرق الوصول إلى منابعها الخفية .

كان لابد - كما تعود - أن ينقل اكتشافه هذا لأصدقائه ، فهللوا فرحين . اصطحبهم فى إحدى الليالى ، ودفع لهم ثمن العرض مهما

غلا ، شاهدوا ما مزق عيونهم من التحديق ، وأجهد قلوبهم من كثرة الدق .. منتهى التحرر . منتهى الإبهار ، منتهى الإعجاز . منتهى الجمال . منتهى القوة والفن . شيء خرافى وفظيع ورائع . لم ينم أحد منهم بعد عودته ، ولم يكن لأى منهم حديث سواء مع الناس أو مع نفسه طوال أسبوع كامل غير ما رأى وما سمع .

حولت عقولهم وتوترت أعصابهم واحتشدت حياتهم بالأحلام والخيالات . بهذه العوامل غير البشرية .

حلا الكفر في عيون صابر بعد سفر أبيه ، وكأنه كان يبحث عن الحرية المطلقة ، حيث لا أوامر هناك ولا توبيخ . لكن الأمر لم يكن يخلو من النظرات العاتبة توجهها إليه أمه إذا جاء بعد العاشرة . وهى التى تكون قد ألقيت في السرير منذ السابعة وتحرص رغم أنها تكون فى عالم آخر على أن تفتح له بنفسها ، خشية أن تفتح له فرحانة .

لم تشعر أم صابر رغم كل شيء بالسخط عليه لأنه كان يبذل جهداً لم يكن يبذله في وجود أبيه ، فهو فى الغيط طوال أى نهار يقيمه فى البلد ، ولا بأس إذن أن يأخذ لشبابه قسطاً من الليل ، كانت تؤمن أن الرجل رجل ، بل كانت تغفر للرجال نزواتهم وطيشهم .. وكأن الانحراف لم يخلق إلا للرجال ، والعيب كل العيب أن ترفع امرأة عينيها فى الطريق أو تفكر واحدة فى أن تكف عن العمل .

(٩)

في أحد الأيام دخل محمد على أبيه ، وكان يقرأ القرآن كما تعود بعد العصر . أخبره أن زكي التهامي وصل واستقبله الحاج مهدى ويدعوك للانضمام إليه . لم يدهش لاشين من الخبر لأن الحاج مهدى على خلاف مع أخيه الحاج راضي عمدة الكفر ، على الرغم من أن مهدى لا يقبل زكي ولا غير زكي ولا أى فرد له علاقة بالسياسة . . رأيه فيهم معروف ومشهور ، فهو يرى أن السياسي مواطن فشل في حياته العملية أو العلمية ويبحث له عن مصدر سهل للرزق والشهرة ، ولن يبذل أى جهد غير الكلام والابتسام.

تساءل لاشين : هل يمكن أن يكون مهدى قد غير رأيه مع الأيام ، كما يغير الكثيرون آراءهم ، أم هو كما هو ، وتظل المسألة كما اعتقد نكاية في أخيه الذى حذر من استقباله ، حرصاً على سمعته ومكانته في عيون محبوبته مديرية الأمن ، والتى لا يعرف في الدنيا رباً سواها .

ارتدى الجلباب الصوف والطاقية الوبر ودخل في العباءة السوداء الفخمة التى ورثها عن والده الشيخ طه . كان يحترم زكى لتاريخه المجيد في الكفاح من أجل بلده ، ونزاهته وطهارة يده وثقافته وبُعد نظره .

وجد دار الحاج مهدى غاصة بالرجال حتى تكاد تختنق . رحب به زكى فقد كان يعرفه ، ولديه فكرة واضحة عن مبادئه وإخلاصه لقريته .

أتيحت الفرصة للاشين كى يمر على الرجال بنظراته يعدَهم ويحدّدهم .

أحصى الغائبين الذين كان عليهم أن يحضروا .. كانوا قلة .. لكنهم بالفعل أبرز الرجال .

أبرز الرجال فى القرية نوعان .. الأكبر سناً والأقرب للمسئولية الحكومية .. كان فى المندرة الكبيرة مع الحاضرين عدد كبير من الشباب والمزارعين البسطاء .

أشار الحاج مهدى إلى ركن من الأركان بإصبعه فدوى هتاف هز القاعة .

- عاش زكى التهامى بك .

بدا على زكى عدم الارتياح ، فهو خبير بمثل هذه النوعيات من البشر ، المفروضة على اللقاءات ، والتى يتبرع العمد لإعدادهم وتجهيزهم لمثل هذه المناسبات .

تساءل بينه وبين نفسه فى أسى :

- مساكين .. معظم شعبنا من هذا النوع . ناس لاتفهم فى السياسة ولاتحب السياسة .. كل همها أن تبحث طول اليوم عن لقمة عيشها ، لكنها تبحث أيضاً بين حين وآخر عن شىء مغاير وجديد ، فقد سئمت الحياة الجافة التى تمتلئ بالعرق والحزن . وقدومى أو قدوم غيرى بالنسبة لها بلا قيمة ، ولكن ربما تقوم أثناء اللقاءات معركة فيتفرجون وتصبح لديهم مادة للذكريات والقص والسهر ، وقد توزع الحلوى أو تدور مناقشة حادة يتبين من خلالها أن العمدة لص ، أو أن شيخ البلد متزوج من ثلاث .

أى شىء يلون حياتهم الكالحة ، أكثر ما يستهويهم الوعود ، يشعرون بالسعادة لمجرد أن تعدهم بشىء .. أن يكون هناك أمل فى شىء .. أى شىء .. فقد طال الانتظار وما زالوا يحلمون بالأمل . تأسرهم الكلمة الحلوة ، حتى ولو لم تكن من القلب .. لأنهم من حسن نيتهم سيعتقدون أنها من القلب .. آه يا بلدنا .. ناسك أبسط مما يجب ،

لكن أصحاب الكلمة والرأى فى البلد لهم أخطاء كبيرة فى حق هؤلاء البسطاء .. أول شيء سأطالب به .

وعندما بلغ زكى هذه النقطة من أفكاره .. تخلص من رحلته الداخلية ورفع صوته ، وهو يشير إليهم بالهدوء . أول شيء سأطالب به في المجلس، أن تشكل لجنة دائمة لمحاسبة الوزراء عن كل تصريح يدلون به .

ضجت القاعة بالهتاف والتأييد ، حتى الأستاذ لاشين الذى لايحب التصفيق كادت تطفر من عينيه الدموع .. كان هناك كثير من الأمانى والرغبات . ورجال السياسة أقدر منهم على صياغة الأمانى فى عبارات مصقولة تلهيهم وتؤجج الأمل فى صدورهم ، فينعمون باللذة ويستمتعون، وتنفض مثل هذه اللقاءات ويخرج الكل مبتهجاً تتلألأ الفرحة على الوجوه يبتسمون للحياة ويقبلون عليها تراودهم الأحلام ، وهكذا يشعرون أنهم أحسن شعب فى العالم .

سأله أحد الشباب :

- لماذا تريد أن ترشح نفسك ؟

تلفت إليه الجميع ، وتمتم البعض احتجاجاً على السؤال ، لأنه خارج عن الأدب .

- سؤال وجيه .. الحق أن البعض يعتقد أنى ما كان يجب أن أرشح نفسى على الأقل لأنى بلغت الستين ويعتقد آخرون أنى بعيد عن السياسة .

أولاً السياسة يجب أن تكون لكبار السن لا لصغاره، الفكر السياسى للشيوخ والتنفيذ العملى للشباب ، لأن الشيخ لاتكون لديه الرغبة فى البحث عن المجد ، بقدر ما يكون قلقاً على تقديم حكمته للآخرين ، وهذا لصالح الأمة ، لأن تفكيره خالص ومخلص .. أما الشباب فيكون فى حاجة إلى العمل وبذل الجهد .

أما ما يقال من أني بعيد عن السياسة ، فلم يحدث أن غبت عن مشاكل بلدى يوماً واحداً ، ويموت الزمار وأصبعه يلعب .

- أنا أقصد ماذا لديك كي تقدمه .. ما هو برنامجك الانتخابى ؟

فجأة دخل عدد من الضباط والجنود والخفراء والعمدة وشيخ الخفراء وشيخ البلد ، وأحاطوا المكان شاهرين الأسلحة .

قال أكبر الضباط رتبة :

- المنطقة محاصرة ، أى حركة ستتحملون نتيجتها .

قال زكي التهامي وقد اصفر وجهه ، بدا كأنه يغوص في مكانه :

- هذا تدخل لاأسمح به .

قال الضابط :

- عفواً زكي بيه .

- لازكي بيه ولازكي تيه .. ما الداعى لهذه الأساليب . لقد حصلت على تصريح من الأمن بالاجتماع .

- نحن لاعلاقة لنا باجتماعك .

- المسألة واضحة .

- المسألة أننا نبحث عن ثلاثة قتلوا سيدة في شبرا ، جاءوا إلى الكفر واختبأوا في الدار المجاورة لكم .

- قتلة .. وأين هم ؟

- عند دخولنا .. هربوا ، ومن حقنا البحث عنهم في أى مكان .

- أعتقد أن وزارة الداخلية مازالت في طريق آخر غير طريق الحكومة .

- أرجو أن تصدق .

- ولماذا في هذه الساعة بالتحديد ، يأتي المجرمون من شبرا ليختبئوا هنا ؟

- اسألهم .. ويسعدنا أن تحضر التحقيق إذا وجدناهم .

- المطلوب ؟
- التفتيش .
- تفضل .
- تعال يا حضرة العمدة .

تقدم العمدة يبحث عن الغرباء .. بدأ يطل فى الوجوه ، وجهاً وجهاً .. وكان يدفع المساكين منهم دفعاً وهو يقول :

- مصيبتان فى يوم واحد ، أقلها خطراً تضيع بلداً بأكملها ، ثلاثة يقتلون فى شبرا ولايجدون مكاناً فى البر المصرى كله إلا كفر الهباب يختبئون فيه .. أرض الله واسعة .. يا مرارك يا حاج راضى .

وعندما بلغ زكى التهامى :

- آهلا يا زكى بك .. نورت الكفر .
- كان الله فى عونك يا عمدة .
- ادع لى يا زكى بيه .
- ربنا يحلها .
- تصور حضرتك ثلاثة يقتلون سيدة فى مصر ولا يقع اختيارهم على كفر فى الدنيا غير كفرنا .. ماذا تسمى هذا الحظ ؟
- خير .

كاد العمدة يبكى وهو يسمع كلمة خير ، وعندما رأى العمدة لاشين وسط القاعدين :

- الحق يا حضرة الناظر . قبض البوليس على صابر ابن أخيك فى بيت متولى أبو خليفة ، ولن يتركوه إلا بعد القبض على الجناة .
- ماذا تقول ؟
- المسألة كبيرة وأنتم نيام .. ربنا يخليه لنا زكى بيه .

هب لاشين وفى إثره صلاح وبعض الرجال . كان صابر ومتولى داخل عربة مغلقة وحولهما بعض الجنود .

وأم متولى بين النساء يطيبن خاطرها وهى تولول .
حينما رأى صابر عمه أخفى وجهه فى كفيه وانخرط فى البكاء .
أقسم متولى أنه تعرف بهؤلاء الشباب فى إحدى السهرات بشارع الهرم، وأعطوه عنوانهم وأعطاهم عنوانه ، لكنه لم يكن يعلم أنهم لصوص أو قتلة .
قال :
- جاءونى منتصف ليلة الأمس . أقلتهم سيارة . تركتهم ومضت .. كان معهم كل شىء . سهرنا معاً حتى الفجر .. لم يصرحوا بكلمة عما اقترفوه . ناموا حتى الظهر .
تحركت سيارة البوليس وسرعان ما اختفت كأنها فازت بأفضل ما فى السوق .. وجاءت أم صابر تجرى من أعماق الكفر وفى أعقابها البنات وفرحانة حافيات .
- ابنى .. ابنى .
ردها لاشين وهو يركب فى سيارة مغاورى ليلحق بصابر ويحضر التحقيق .. جلست أم صابر على الأرض وارتسمت أمامها ملامح إبراهيم . انفض اللقاء وقال البعض :
- يا سلام على التمثيلية المحبوكة .. يريدون قفل باب زكى التهامى عليه بصنعة لطافة .. وكل شىء قانونى .
وتجولت فى الطرقات الأسئلة .

الساقية تئن ، والجاموسة معصوبة العينين تدور ، الساقية تغرف المياه من البئر وتصب فى القناة الصغيرة ، وما أن تستقر المياه الموهوبة على أرض القناة ، حتى تندفع فى جسارة وهى تعرف طريقها مسرعة تتخلل الأرض العطشى ، تتلوى كأنها مئات الثعابين تحاول أن تختفى بين العيدان القصيرة . الساقية تئن وصابر يستند إلى جذع شجرة قريبة ، يعض على شريحة من الغاب . ذاهلاً عن نفسه وعن كل ما حوله .

حواسه تعودت على أنين الساقية ، واطمأنت إليه ، غدا أنينها فرصة لشروده وربما نومه ، وصمتها مزعج له وموقظ .. إذا ألفى الجاموسة توقفت هز لها ناقوساً صغيراً ، وتكون الجاموسة هى الأخرى قد سلمت نفسها للفكر ، فلا تسمع صلصة الجرس ولا تتحرك إلا إذا قال لها :

– حيه .. ربنا يوعدك بسكينة .

يعود الأنين وكأن الجاموسة تغترفه من بئر الساقية ، ويعلو النغم الحزين ويتهادى ويغوص ناعماً فى النفس الأسيانة حتى يصبح سكوناً ممتداً ، ويخلو صابر لنفسه :

– آه يا متولى .. نحن الذين فى السجون ولست أنت .. مر عليك أسبوعان وأنت بين الجدران تنتظر فرج الله ، وجهود الشرطة فى القبض على الجناة ، ونحن هنا بدونك حشرات .

هذا الولد النصف متر ذو الوجه الدميم ، يلبس أفخم الملابس ويصرف علينا جميعا ، ويضرب أطول من فينا بالكف على قفاه فلا يرد عليه ، لأنه ولى نعمتنا وهو الذى يؤنس ليالينا بل لولاه لما كانت هناك ليال أو سهرات أو كيف .. ولولاه ما قضينا أمتع

الأوقات فى قهوة الزتحرى.. لولاه ما كانت الدنيا جديرة بأن نعيش فيها ، هاهى الآن لعبة سخيفة بدونه ومملة وبلا طعم ، كان منقذنا من الغم والملل والضيق.. ماذا نفعل الآن بالوقت والأيام .. وأبى .. الله يسامحه ، لايقول شيئاً رغم مرور الشهور الطوال . رجل عجيب . أعصابه فى ثلاجة ، كأنه فرح بالسفر تخلصاً منا ، هل نسى أن له خمسة أولاد وزوجتين .. شىء غريب حقاً .. خطاب واحد أرسله منذ شهرين .. اصبروا ، مازالت إجراءات الإقامة لم تتم ولا يمكننى أن أبعث مليماً واحداً ، أنا أعمل مع المقاول شحته وعنوانى سهل هو .. يا سيدى لانريد أن نعرف عملك أو عنوانك .. نريد النقود .. أنت تركتنا من أجلها .

فوجئ صابر بالسكون يكاد يخنقه ، هب إلى السوط ، فرقعه فى الهواء وسب البهيمة فدارت .

بحث فى جيب الصديرى المعلق على شجرة الليمون عن سيجارة . وجد نصفاً ، أشعله وعاد إلى جلسته .

تعجب كيف لم يحس بمقدم شفيقة العبيطة ، ولم يتبين وجودها إلا وهى تقول له : إلش .

كانت تنطق الشين فى كلمة «قرش» ممزوجة بالخاء ، وكانت الحروف تخرج من جانبى فمها وبعيداً عن لسانها .. دفعها بيده قائلاً :

- ما كان هذا حالى .

ابتعدت عنه قليلاً وانحنت ترفع من الأرض حجراً صغيراً . هب صابر ليستعد لعدوانها . ألقت الحجر على شجرة التوت . اخترق الحجر الأغصان وسقط فى الجانب الآخر من الترعة ولم تسقط توته .

عاد صابر إلى جلسته وقد أحس بقدر قليل من خيبة الأمل لسوء ظنه فقال :

- الغبية تعلم أن التوتة لم تثمر بعد .

قالت له نفسه : متولى ورث مالاً بلا حدود .

قال : وعامر شقيق فرحانة يقبض من المصنع مبالغ كبيرة ، وينفق كما يشاء دون قلق ، الغريب أن عمى المسكين يرى أننا قادرون على تحقيق دخل طيب من الأرض .. ولماذا نرهق أنفسنا مادامت هناك مصادر أسهل وأسرع . ولن نذهب بعيداً ، أولاد عمتى شلبية لم يجاوز أكبرهم خمسة عشر عاماً ، ويحصل الواحد منهم على أربعة جنيهات كل يوم من عمله فى محجر أبو عميرة ، ومنهم من يعمل فى معاطن الكتان وهم لا يعرفون عن الدنيا شيئاً .

أموال كثيرة فى كل مكان .. أما أنا فأبقى هنا أحرث هذه الأرض اللعينة التى لاتعرف إلا الأخذ ، ثم لاتعطى شيئاً إلا بعد شهور .. عندئذ يكون الإنسان قد احترق تماماً . وها أنذا قد أنهيت الخدمة العسكرية وبقيت معك وجهاً لوجه أيتها الحبيبة .. ليست لى وظيفة وليس لك من يحرثك . لا تشغلى بالك ، لا مكان لك فى قلبى ، ولم أخلق لك . كما أنك لست المستقبل الذى أفكر فيه ، ولست أنا فتى أحلامك ولا حتى أبى .. خلاصة القول ولاتغضبى .. الأرض أصبحت موضة قديمة ، فتمددى تحت الشمس واستمتعى بطول العمر . أما أنا فلن يطول مقامى معك ، وقريباً سأرحل إلى حيث لا ألقاك ، سيكون لى وضع آخر ، لن تكون هناك مشكلة بالنسبة لى . لقد درست الزراعة ، وإذا كان أبى سافر ووجد عملاً ، فسوف أسافر وأجد عملاً أفضل منه .

وقع حجر قريباً من قدميه . كانت شفيقة مازالت تلقى الأحجار على التوتة ، دون أن تسقط توته ، يبدو أن الأمل ظل يخامرها .

تذكر صابر ما يقال عن كيس الأموال الذى يحيط بخصرها مكتظاً بالنقود الورقية .

هل هذا معقول ؟ .. ومن أين لها بهذا المال ؟

غير معقول ولا منطقى وجود مثل هذه النقود ، وقد أثبتت فرحانة

بما لا يدع مجالاً للشك كذب هذه الشائعات . وهل بعد أن تعرت تماما لها من يظنها تملك مالاً ؟ لا . . لا أموال هناك .

بدأت الفكرة المجنونة تبتعد عنه ، وسرعان ما عادت إليه ، كأنها لا تستطيع فراقه . ولم يدر ما السر الذى دفعه إليها من جديد :

- لكن كل جهود فرحانة لتكذيب الشائعة لم يحل دون بقائها وانتشارها ، ومع الوقت انشغل الناس عن دفاع فرحانة ، وبقى الانطباع الأول والمعلومة المحفورة فى الأذهان ، وما زال الجميع يؤكدون وجود هذا الكيس ، بل يقسمون . ناس عجيبة . ماداموا يفتقدون الدليل ، فما هذا الحدس الذى يضع أيديهم على الحقيقة ؟ . إذا كانت حقيقة .

رغم ما فعلته فرحانة بشفيقة إذ خلعت عنها كل سر ، فما زالت تبدو لأهل القرية كشىء مقدس أو موروث جدير بالاحترام ، ولكن أى تقديس أو احترام لبنت عبيطة تحمل مالاً ، لابد أن تبقى مقدسة بلا مال ومحترمة بدونه . . فهل يوجد مال أو لايوجد ؟ .

الخاطر متمسك به والفكرة المجنونة تزج به إلى مصير لايدريه . هناك فى أعماقه ما يدفعه لأن يتأكد من صحة الشائعات بنفسه .

توجس خيفة من هذا الخاطر الذى هجم عليه وسيطر . تبين أن الجاموسة توقفت عن الدوران وكأنها تتجسس على أفكاره . . زعق عليها بغضب ، فمضت إلى عملها صاغرة .

رده الوازع الشيطانى إلى شفيقة .

حدق فى جسدها ، مسحه بنظراته من شعرها المنكوش إلى قدميها الحافيتين . . ثم استقر على الخصر . . لاحظ أن هناك بالفعل عند الخصر بروزاً تحت الرداء الذى يبدو وحيداً .

قرر العمل فوراً . تلفت حواليه . لم يكن هناك أثر لإنسان . الأشجار تلف المكان وتخفيه . . الشمس المشرفة على الغروب تتمسح بأشعتها الواهنة فى الأشجار وعلى صفحة المياه كأنها لا تريد الذهاب

قبل أن تعرف النتيجة .

نهض وعيناه لاترى غيرها . اضطرب . بدت له الفكرة التى استعد كى يقدم عليها غير مضمونة . أحس بساقيه لا تقدران بشكل كاف على حمله ، فكيف سيقوم بالعمل ؟ واجه نفسه بعنف .

ما هذا الخور وهذا التراجع . من هذه المخلوقة التى أعمل لها حساباً .

هيا .. لم يعد هناك وقت . لحظات ويمر الفلاحون عائدين إلى ديارهم .

تقدم فى بطء . دنا منها . التفتت إليه :

- هل تريدين قرشاً ؟

هزت رأسها مرحبة وهى تبتسم ابتسامة دلت على مدى البهجة التى فجرها هذا الوعد ، وكشفت عن أن القرش المنتظر هو القرش الوحيد هذا اليوم .

انحنى فجأة ولف يداً تحت مؤخرتها ويداً تحت رقبتها . رفعها عن الأرض قبل أن تفيق من ذهولها . ذعرت شفيقة التى كانت تنتظر القرش . وجدت نفسها تطير فى الفضاء وتسقط فى ماء الترعة .

أصابت الماء الراكد حالة من الفزع فتطاير ، وجنت شفيقة حين وجدت نفسها تحت الماء لحظات ، ثم هبت واقفة ، تلطم وجهها لترى وتفهم ما حدث للدنيا . انكفأت على الشاطئ بسرعة ، دست فيه أظافرها وتعلقت بجذور الأشجار العديدة المتجهة إلى قاع الترعة .

بينما كانت تبحث عن الحياة وتحاول التخلص من مأزقها ، كان صابر يقف مستعداً للخطوة التالية ، بقى الأهم والذى لامفر منه .

تذكر حالته وهو يرفعها ويلقيها فى الماء . أحس ثقة فى نفسه . استنفر قوته واستعد للفتاة التى لابد أن تنتقم .

واستعد للحقيقة التى يتعين عليها الآن أن تتجلى ، فما قيل عن المال حول خصرها لابد أن يظهر . الأوراق ستبتل وتفسد .

أرادت أو أبت سوف تخلع ملابسها وتفرش ثروتها .

ما أن عادت شفيقة للحياة وأدركت أنها فوق الأرض واقفة ، حتى نظرت إليه فى حدة وبصقت فى وجهه واندفعت تجرى .

لم يكن من الممكن أن تفرش الأوراق المالية أمامه . تمهل قليلاً حتى ابتعدت مسافة ، ثم أسرع فى أعقاب المال والحياة .

لحقها بسرعة ، لكنه كبح اندفاعه حتى لاتراه . كان قفزها كقفز الغزال الذى يفتش عن النجاة من نمر جائع ، وكانت أقدامها العارية تسحق أوراق الشجر الذابلة وتدله عليها .

حرص النمر ألا يمس الأرض ، كان يقف لحظات ثم يقفز قفزتين ليعوض ما فاته . فجأة غلبه الفزع حين برق فى رأسه خاطر .

– ماذا لو واصلت العدو إلى الدار ؟

سيضيع كل شىء .

تنبه على الصمت . لا أحد هناك ولا حركة لمخلوق . تلفت حوله . على بعد خطوات إلى اليمين ، كان خص أبو عبيد ، توقع أن تكون قد لجأت إليه . اختار مدقاً ناعماً . شق طريقه من خلال حظيرة البهائم الخالية .

كان للحظيرة فجوة صغيرة تطل على الخص . لكنها عالية . احتاج أن يشب على قدميه . ألفاها وقد رفعت ثوبها المبتل وأسرعت تحل الحزام . كتم أنفاسه إلى أن رآها تفك طيات الحزام على ركبتيها وبدأت تفرشها واحدة إلى جوار الأخرى . انكبت فوقها تنفخ فى المبتلة ، وتقلبها كأنها فوق نار ، وتحاول بطرف ثوبها أن تهف عليها كأنها تشوى الذرة .

حدق فى الأوراق .

هل هى بنكنوت . . هل هى حقاً نقود ؟ هل يمكن أن تصرف ويحصل المرء مقابلها على ما يريد ؟ هل هى فلوس كالتى يستخدمها الناس ؟ أم أنها فلوس الجن والعفاريت ؟ مما لا تصلح لنا .

حدق فيها ، أمكنه أن يتعرف على بعضها .. هذه المآذن وهذه الأعمدة المهيبة فعلاً في نقودنا .. متى يتعين عليَّ أن أتقدم ؟ .. هل أنتظر حتى تنتهي من التجفيف ؟ لا ..

ربما جاء أحد فعكر علينا صفو العملية .. لابد من انتهاز الفرص بل اقتناصها ، فكم من فرص ضاعت بالتفكير والتأجيل .

تراجع صابر وملأ رئتيه بشحنة عميقة من الهواء ، وكأنه لن يتنفس مرة أخرى . أخذ طريقه في منتهى الحرص ، دائراً حول الخص متجهاً إلى الباب. كان يعرف طريقه إليها ، فهي الآن إلى اليمين بعد عبوره الباب . منهمكة في تجفيف أموالها .

انقض عليها وأحاطها بذراعيه . حملها وألقاها خارج الخص . صدرت عنها صرخة مكتومة . لم تكن بالتحديد صرخة لكنها كانت فزعة ، كان الرعب أكثر ما فيها .

انحط صابر بكل اللهفة والشهوة المجنونة فوق الأوراق يجمعها في عجلة ، يلقيها بترابها في صدره .. عادت إليه شفيقة . دفعته دفعة ألقته على وجهه فدفنته في النقود . فوجئ بقوة الدفعة فاستدار إليها . دست أظافرها في رقبته .. دفعها ودفعته .

مضى الصقر والحمامة يرقصان رقصة وحشية .. ألقاها بعيداً فعادت تهجم عليه بحجر أخطأ رأسه لكنه قصم ظهره فتأوه ، دون أن تكف يداه عن العمل . انقضت فوق كتفه وملأت فمها بلحمه . ضغطت أسنانها الحديدية عليه . زعق بعد طول تحمل . دفعها دفعة غاضبة من أجل لحمه المستغيث من نار الألم ألقت بها على الباب .

ترنح الخص وسقطت شفيقة على الأرض دون أن يصدر عنها غير آهة متراجعة . ساد صمت مفاجئ . حمل النقود وآب .

كانت أقدامه تلطم الأرض في قفزات غير منتظمة، ودبيب قلبه يبلغ أذنيه في هوس عنيف . طبول ضخمة تدق في حماس داخل قاعة خالية.

لم تتوقف الطبول التى تحطم ضلوعه ، حتى بعد أن بلغ الساقية ، ورأى الجاموسة تنتظره مغمضة العينين ، واقفة مستسلمة لغياب الرفيق .

كانت تعلم أنه قد آن الأوان كى يصحبها صابر إلى الدار ، لكنه مر بجوارها وفاتها ، متجهاً إلى الخص الجوانى . جلس فيه لحظات يلتقط أنفاسه . أراد أن يخرج البنكنوت . ويتفرج عليه ليطمئن قلبه ، فربما ترسل شفيقة شياطينها فى إثره لتمحو من الأوراق كل قيمة .

دفع الفكرة عنه فالظلام قد حل ، وسوف يثير الشبهات لو أشعل عود ثقاب .

مضى إلى الدار يفكر فيها وقد أسف لما فعل بها ، أقنع نفسه أن أخذ النقود كان أمراً محتوماً ، وأنها هى التى اضطرته للعنف . سمع صوتها يخرق صدره ويزلزل جسده ، تلفت . تخيلها تزحف فى أعقابه .

لاحت له الأشجار فى المساء كمردة تحرس القرية الناعسة ، تهتز وتحمحم كأنها تستعد لقتال .

- ألم تر شفيقة ؟

كان الجميع يجيبونها بالنفى .

- أين تراها ذهبت ؟ إنها لاتبقى خارج الدار بعد المغرب .. ألم تر شفيقة يا ولد ؟

- لا يا حاجة .

- هل فى الكفر فرح أو مولد ؟

- لا يا حاجة .

- غريبة .

قبل أذان العشاء بلحظات قليلة دنا من الحاجة رجل تلاه آخر يسير فى الظلام متثاقلاً تتردد أنفاسه فى صعوبة .. قال المتقدم :

- شفيقة يا حاجة .

- هل وجدتها ؟

- مضروبة .

- ماذا تقول ؟

- هاهى ذى .

فى حرص حطها على الأرض .

- بنتى .

- وجدناها فى خص أبو عبيد حين سمعنا صوتاً مكتوماً يتألم . منكفئة على وجهها ، ولما رفعناها ، ووجهنا إليها البطارية ، ألفينا الوجه غارقاً فى الدماء والملابس مبتلة .

- دم !

ارتمت عليها الحاجة تتحسسها بيدها ، كان بصرها كليلاً ، لاترى من خلاله إلا ملامح شاحبة لأشياء رمادية .

- بنتي . . هات ياولد اللمبة .

تفجرت على الفور بقعة ضوء من الكشاف الذى يحمله أحدهما . . وأسرع الآخر فخلع لمبة الكيروسين من مسمارها فى صحن الدار ، ودنا من الحاجة ، سقط مزيد من الضوء .

- أى كلب تراه فعل هذا . . وماذا بالضبط فعل ؟ وأين الحزام ؟

- أى حزام ؟

- حزام النقود .

- لم نر نقوداً ، نحن لم نمسها إلا بقليل من التراب على جرحها لوقف الدم . . نقسم لك بالله العظيم ما رأينا شيئًا .

- ربما الحزام فى الخص .

- لقد فتشنا الخص .

- من تراه فعل هذا بالمسكينة اليتيمة ؟

- هل كانت تحمل نقوداً ؟

- نعم .

- لابد أن نغسل وجهها .

- لا . . لابد أن يراها العمدة أولاً ويجد الجانى .

- وكيف يجده ؟

- هذا عمله . . وحين يجده ، سوف أضربه بنفسى وأبصق فى وجهه وأمرغه فى التراب . . ليذهب أحدكما إلى العمدة ويستدعيه .

أسرع أحدهما ، وبعد لحظات جاء :

- العمدة عنده ضيوف من البندر ويقول لك : ماذا تريدين ؟

- احملها يا ولدى ، سندخل بها عليه .

مر رجل ، فسألتهما عنه .

- شلبى أبو خليفة .
- آه ، شلبى .. أعرفه .. شلبى .. أيرضيك هذا ؟
- مساء الخير يا حاجة .. من هذا المحمول ؟
- شفيقة .
- ما هذا !
- أيرضيك هذا ؟
- من السافل الذى .. ؟
- هيا معنا إلى العمدة .

مضوا إلى العمدة ، وفى الطريق تسأل عن السائرين وتوقفهم ليروا شفيقة .. ماذا .. مستحيل .. هذا إجرام .. اليتيمة المسكينة .

- أيرضيكم ؟
- لا .
- هيا إلى العمدة ليرى رأيه .

القلوب الكافرة لاترعى حرمة ولاتأسى لضعيف . يعتدون على بنت يتيمة وطيبة لا تؤذى أحداً . إنها لا تدفع حتى الذباب الذى يقف على وجهها .

تدمدم الحاجة أسمهان ، وتنفث الغضب من فيها وتدق عصاتها على الأرض ، كأنها تريد أن توقظها لتنهض وتصحبها إلى العمدة .

خرج العمدة إليها . فوجئ بأن الكفر كله تقريباً يحيط بها وأمامها على الأرض ترقد شفيقة مستسلمة . تطل عيناها من خلف خيوط الدم التى جفت فوق الوجه والرقبة ، وعلى الشعر والملابس .

أطل العمدة على الجثة الملقاة فى فزع :

- ما هذا .. قتيلة .. يا نهار أسود .. آه ، كفر العجائب يا كفر المصائب .. الحادثة لاتحدث أبداً إلا إذا كان هناك زوار أغراب .

- ومن الزائر اليوم ؟

- رشاد بك شقيق مدير الأمن .. هذه البلدة تنوى أن تقتلنى بحسرتى .. قتيلة فى يوم كهذا ، ومن هذه إن شاء اللّه ؟

انحنى عليها وحدق فيها .. حدقت فيه شفيقة . بدت كأنها فرحة باللعبة .. تتفرج على ما يحدث .. تنبهت منذ أفاقت على أن العملية كبيرة ، وأنها ستصبح موضوعاً هاماً .. بل هى الآن أهم ما يشغل الكفر كله .. ها هو العمدة بنفسه ترك ضيوفه وجاء يكشف عليها ، ويحلق فى وجهها . تذكرت حديث فرحانة إليها عن شكلها بعد أن تستحم ، وجمالها الذى سينبهر به العمدة .

ابتسمت له .. تراجع فجأة ، ثم عاد يحدق فيها .. ابتسمت له .. لابد أن تبدو فى نظره جميلة .

- إنها تضحك .. القتيلة تضحك .. تمثيلية إذن .. حللتم مفاصلى حل اللّه مفاصلكم .. هيا اذهبوا فناموا ودعونى .. ليت اللّه يأخذنى فأرتاح من وجوهكم ..

استدار ليدخل . زعقت فيه الحاجة :

- يا راضى .

- نعم يا حاجة .

- من الذى فعل هذا بشفيقة ؟

- ماذا بها يا حاجة ؟

- ألا ترى الدم ؟

- مجرد إصابة بسيطة ..

- ليست بسيطة .. إنها شروع فى قتل .

- وما المطلوب ؟

- أن تسلمنا الجانى الآن .

- الآن !

وزعق الجميع :

- نعم نريده الآن .

- هذه مسألة تطول .

- لن نتحرك من هنا إلابعد أن نعرف الجانى ويأخذ عقابه .. سيصفعه كل منا صفعة واحدة .

- لكن .

- من الجانى يا عمدة ؟

العمدة : يا شيخ الخفر . قب واغطس وهات الكلب الذى فعل هذا بشفيقة .

الحاجة : أريدك أنت أن تبحث عنه . اجمع البلد كلها وفتش رجالها ونساءها وبيوتها .. لم يضربوها فقط بل سرقوا مالها .

- وهل لها مال !

- نعم .

- هذه شائعة كاذبة ..أصل كفرنا يهوى تأليف الحكاوى .

- هذه حقيقة .. لقد رأيت النقود بنفسى .

- إذا سأستدعى البوليس .

- استدع من تشاء .. لن يتحرك من هنا واحد إلا بعد أن يعود حق شفيقة إليها .

- أنت تبالغين فى الأمر .

- حقها قبل حقك .. أنت بالداخل تلهو وتضحك والبنت مضروبة ومسروقة ولاندرى ماذا هناك غير هذا . البنت لها شرفها ، وشرفها من شرفك يا عمدة .. شرفكم يا بلد .

وصاح الجميع فى صوت هائل هز الليل وزعزع العمدة :

- لابد أن نعرف الجانى .. لابد من الانتقام .

الأصوات تهدر ، قادمة من الصفوف الخلفية حيث الظلام أكثر كثافة ، ثم تتقدم إلى أن تغدو واضحة فى نور الدوار وعلى ألسنة

الطليعة .. ممثلة في الحاجة أسمهان والحاج مهدى شقيق العمدة وشلبى أبوخليفة وأخوه، وعامر شقيق فرحانة وأحمد الطويلة وعم يس والتهامى ولاشين وصلاح . انقلب الكفر كله ، حتى صابر كان بين المطالبين بالثأر والانتقام ، قال العمدة :

- أين وجدتها يا حاجة ؟

قال الذى وجدها :

- «فى خص أبو عبيد»

- هيا يا شيخ الخفراء . امسح لنا الخص وكل ما حوله . سوف نجد أى أثر يدل على الجانى .

قال شيخ الخفراء وهو متألم لأنه أجبر على ترك الوليمة الرائعة عند العمدة :

- أثر بالليل .. فى الظلام !

قال الجميع :

- سنحولها لك ظهراً .. هيا بنا .

عجب الأستاذ لاشين وصلاح، كيف أمكن للفلاحين وشباب الكفر أن يجمعوا فى ثوان كل هذه الكشافات والمشاعل والمصابيح والكلوبات .

مضى الجميع إلى الخص .. لايجدون صعوبة فى النظر إلى حصى الأرض .. كان الضوء كافياً لتفادى تحطيم النمل .

مضى صابر معهم يشاركهم البحث فى حماس محاولاً أن يكون فى المقدمة .

استدعى العمدة كبار رجال البلد الذين كانوا عنده حول الوليمة المقامة تكريماً لرشاد بك شقيق مدير الأمن ، والذى رشح نفسه للانتخابات القادمة .. هؤلاء الرجال الذين تعودوا السير فى ركاب العمدة والالتصاق به وطاعته ، وشد أزره والتأثير على الناس تنفيذاً لتوصياته .

طلب إليهم التصرف لتهدئة الحاجة أسمهان مصدر قلقه ، التف حولها الرجال ذوو المهابة ، اقتادوها إلى دارها مع التبجيل والاحترام . تحدثوا عن ماضيها وأصلها وأخلاقها .

في هذه الأثناء جاء حامد الأعرج ببعض الماء . غسل وجه شفيقة . نهضت وهى تضحك . سارت فى أعقابهم إلى الدار تتلفت حولها ، بحثاً عن أهالى الكفر الذين كانوا يحيطون بها منذ قليل .

رجع الرجال وبقيت الحاجة وحدها ، وأمامها شفيقة تبتسم ، وفجأة صرخت بعد أن تذكرت أنها فقدت الحزام ، وأخذت تلطم خديها وتخمشه بأظافرها . ربتت الحاجة عليها وأخذتها بين أحضانها . ولما أحست بالبرودة مع توغل الليل أغلقت الباب . وأشعلت لها النار . . رويداً رويداً سكن جسد شفيقة المرتعد . شمله الدفء الذى تسلل إلى شرايينها الفزعة ، وبلغ عظامها المترنحة .

نادت الحاجة على شفيقة ، لم تجبها ، نام الجسد المجهد فى موضعه . حاولت أن توقظها كى تأكل ، لكنها كانت متمسكة بحالة أشبه بالموت . باءت كل محاولات إيقاظها بالفشل . تضايقت الحاجة لأنها لم تسأل شفيقة عما جرى لها بالضبط . . أشفقت عليها من هذا الموضع . . كيف تنام فيه . . حاولت جذبها إلى الداخل . . كان جر جبل أسهل من جر هذه الجثة . لكن الأنفاس تتردد فى عنف ، كأنها حشرجة وحش يحتضر . . عادت أمومة الحاجة أسمهان تنزعج من البرد على شفيقة . . كان من المستحيل نقلها من مكانها .

أراحت رأسها فوق وسادة وغطتها . . ثم توقفت إلى جوارها لحظات . تصورت أنها إذا دخلت للنوم فى حجرتها فسوف لا تجد شفيقة عندما تصحو . . إذن فلا مفر من النوم بجوارها . أعدت فراشا لها على الأرض خلف الباب مباشرة .

فى فرح بنت السيد أبو شعبان وهو من أبرز رجال العمدة والبلد ، رأى صابر فرحانة وإلى جوارها صبية جميلة . تطل من بين شفتيها الحمراوين أسنان متساوية ومضيئة . لم يرفع عينيه عنها . ارتأى أنه حين ينظر إلى غيرها ، فإنما يضيع الوقت ويرهق عينيه وأعصابه فى النظر إلى الوجوه الدميمة وهى كثيرة ، أو على الأقل معروفة وشبعت نظراً إليها وتحديقاً فيها . دوى طلق نارى . التفت تجاه الصوت ، بدت له خصلات شعرها الطويل متدلية خلف ظهرها .. دقق النظر .

تحدث إلى نفسه التى تركت الفرح وانشغلت عن الضجة :

- معقولة تكون هذه الصبية هى أحلام .. أحلام التى كانت فى الشهادة الابتدائية منذ عامين فقط تصبح عروسة . الشبه كبير بينها وبين فرحانة لكنها أجمل ، وأنفها أصغر والعينان متوحشتان ، والصدر .. آه متى أطل واستوى .. الجمال فى كفرنا بخيل يغيب مدة طويلة ليعود فيتكرم على واحدة من البنات يلبسها فجأة ، وبين يوم وليلة يواجه شباب الكفر مصيرهم ، فإذا فتاة جميلة تدق الأرض وتهدد القلوب وتعصف بالرجال ، وهى من حيث السن والخبرة ما تزال طفلة ساذجة ، لكن الجمال له معايير أخرى . ويبدأ الكل فى إعادة حساباتهم .

فمن تزوج حديثاً ندم ، ومن كان يمقت سيرة الزواج يطب فجأة ويطلب الزواج فورا . الجمال أكبر من الكل وأقوى .. له يلين العاصى ويخضع المستبد الطاغى .

لقد انتهى الجمال مؤخراً جداً من وضع اللمسات النهائية على وجه

هذه الصبية الصغيرة .. واضح أنها أجمل من في الفرح ، والأدهى من كل هذا أنها الوحيدة التى لاتضع الألوان والمساحيق .. تحد غير مقصود ونزال .

دنا منها وكأنه أراد أن يشم عبيرها ، ويسمع همس أنفاسها وربما ليتأكد من أنها جميلة عن قرب كما هى عن بعد .. ألفاها أجمل ، فقد تجلت الشامة على الذقن والغمزتان أسفل الخدين . ضحكت فأضاءت الدنيا التى فى القلوب .

سمع صابر فجأة صوتاً مخنوقاً يعرفه .. التفت إليه .. كانت شفيقة تحدق فيه وقد خلت عيناها من البسمة اليتيمة .

حاول الذهاب فواجهته ، يميناً واجهته ، يساراً واجهته .. توقف .. صعد الدم حاراً إلى رأسه .. تأملها .. تساءل عن المدى الذى يمكن أن تبلغه حربها معه . إنها حقاً «فينوس» مقطوع لسانها ولن تقول شيئاً ، ولكنها ذات أصابع وسوف تشير وها هى تشير دون أن ترفع أصبعها .. إنها القوة الهامسة والجبروت الصامت .

أشفقت عليه من حصارها وقوة قبضتها الساكنة .. تركته يمضى .. لم تقل شيئاً . حملت عذابها دون أن تبتئس ، وأحكمت حول سرها الأقفال .

جاءت الحاجة أم صلاح تلقى على الفرح نظرة مختلسة . لا تحتمل ضجة الأفراح ونزق الشباب ، فى الفرح يخرج الجميع عن أطوارهم حتى الشيوخ ، لكنها كانت تعرف أن الأفراح معارض للبنات .

لا تثق بالذين يرشحون لها عرائس لصلاح ، حتى صلاح نفسه لا يعتد باختياره ، فأخيب الآراء فى البنات آراء الشباب ، وأخيب آراء الشباب رأى ابنها صلاح .

طافت نظرات الحاجة نبيهة أم صلاح فوق الرءوس ، حتى سقطت فوق أحلام أخت فرحانة . آه .. هذا الوجه بداية لزوجة رائعة .

أخذت طريقها نحوها .. جلست خلفها على مصطبة . انشغل عنها الضوء بالضوضاء . اصطادت ولداً يجرى . طلبت منه أن ينادى أحلام . مشى الولد ولمسها فاستدارت :

- هذه تناديك .

جاءت أحلام . رفعت الحاجة نبيهة يدها فوق عينيها كأنها لاترى من شدة الضوء :

- لا مؤاخذة يا ابنتى، حسبتك سناء ابنة حامد ابنى ، لا أراك .. فمن أنت ؟

- أنا أحلام يا حاجة ، بنت رياض أبو عمر .

- أعرفه . أبوك رياض رجل طيب . وأمك كاملة وتعرف الأصول .

- أية خدمة ؟

- دعينى فقط أستند عليك حتى أجتاز هذا الطريق . خطوات بسيطة .

- من عينيه .

ألقت بثقلها كله على البنت .. ادعت ضعف الإبصار ووهن العظام، حتى تتعرف على الجسد الذى تستند إليه .

بعد خطوات :

- يكفى يا ابنتى .. شكراً .

استدارت بسرعة خلفها ، ترقبها فقد تكون عرجاء أو بها شىء من كساح أو التواء .. لكن البنت سبحان من صور .. كانت تمرق فى خفة، سليمة الخطو . جسدها ريان وقدها ممشوق وردفاها متوازيان .

قابلها صلاح فى الطريق .

- أين أنت يا أمى .. لم يسبق أن خرجت فى المساء إلا للعزاء .

- وجدتها . لن تجد أفضل منها ، خرطها الخراط وتمدد مات .

- من ؟

- بنت رياض أبو عمر .

- مازالت صغيرة .

- هى الأنسب لك . اسمع الكلام .

- لاتفكرى فى هذه المسألة الآن .

- لقد انتهيت من التفكير .

- هيا إذن . . الحاج يسأل عنك . تسودَ الدنيا إذا لم يجدك إلى جواره .

- غداً نخطبها لك .

- أنت اخترت . دعى لى فرصة دراستها .

- ادرس كما تشاء . . لكن لاتطل . سيدق الخطاب بابها خلال أيام . . ستندم .

***

مر بهما لاشين فاستوقفه صلاح قائلاً :

- هل سمعت بالمهزلة ؟

- الانتخابات ؟!

- لقد فاز زكى التهامى وأعلنت النتيجة فى المساء ثم أصدر وزير الداخلية بياناً قال فيه : لقد كان هناك صندوق لم يفرز رجح منافسه .

- ونجح شقيق مدير الأمن ؟

- نجح .

- كل شيء تفصيل .

- بمقص الحكومة .

- مع إن فيه صحف معارضة .

- مازالت الحكومة تشيع أن كل ما تكتبه المعارضة لغو وكذب ومحاولة للبحث عن دور .

- هذا صحيح ولابد أن تتغير الفكرة .

- يجب أن ينظر للمعارضة على أنها تريد المصلحة مهما كان صوتها عالياً ، وألفاظها جارحة .

- وبعدها .

- سيتحسن الحال ولكن ببطء شديد .

- نتمنى .

***

تخلص صابر من شفيقة وقال لفرحانة :

- عندما تريدين العودة ، أشيرى إلىَّ حتى أصحبك .. فى الكفر غرباء .

- لست وحدى .. معى أختى أحلام .

- أهلاً يا أحلام .

مد لها يده .. مدت يدها الطرية وأسكنتها فى عش يده .. احتضن وجهها بنظراته . أسلمت أهدابها . لم يترك يدها إلا بعد أن فتحت عينيها . دست نظراتها فى عينيه . اضطرب وفقد السيطرة على أعصابه . دون أن يدرى خفت قبضته . تلاشت يده . سحبت يدها . أفاق من لحظة ذهول قرر أن يبدأ العمل . دنا أكثر وهمس وهو يميل :

- كبرت يا أحلام .

وهمست مثله :

- أعرف .

- لكن هناك أشياء أخرى لاتعرفينها .

- مثل ؟

- لا .. ليس فى الزحام .

قالت فرحانة فجأة :

- امض يا صابر .. ألا تخجل وأنت تقف وسط الحريم .

تنبه إلى أنه فعلاً الرجل الوحيد بين جمع من النساء ، لكنه قال :

- إننى أقف مع أمى وخالتى .

ضحكت فرحانة وأحلام .

- ألست زوجة أبى فى مرتبة أمى وهذه أختك .

دفعته فرحانة بقبضتها .. ابتعد صابر عنهما ، لكن عينه لم تبتعد ولم ترحل إلى وجوه أخرى .. ظلت ملامحها فى عينيه وفى فكره . توغلت فيه وبنت فى قلبه عشاً كبيراً . مدت جذوراً عميقة وتفرغت روحه .. قرر أن يتزوج أحلام . فى استطاعة أبيه حين يعود أن يزوجها له .. سيأتى بالمال والهدايا والجاه .

حين جاء متولى ليصحبه إلى جلسة مجهزة بكل مالذ وطاب رفض .. كان مدعواً بحرارة كى يتأمل أحلام ويعد شباكه ويجهز خيمته .. عليه أن يستمد من نظرا تها بين الحين والحين العون على دفع قلبه الأصم إلى التسليم لها ، والخضوع لجمالها والرضا بالنصيب الذى سيربط بينهما .

يحتاج إلى تفرُّغ تام استعداداً لقدر هائل من السعادة ، من المحتمل أن ينعم به مع هذه العيون الساحرة .. عليه أن يتخلى عن مباهج متولى ومزاياه ، وعليه أن يتنازل عن كل ما تلوح به الدنيا فى هذه الساعة ، على الأقل كى يحلم ، فقد عاش عمره كله لايعرف الحلم ، وأخيراً أتيح له أن يعوض عن حياة تعسة بالمال والحب .فما المطلوب بعد ذلك ؟ إنها ليست أحلام . بل حقائق ، ولكنها مع أحلام .

التقى بها فى اليوم التالى خلف الغاب الأفرنجى المجاور لغيطهم . بعد أن وضعت لأمها الطعام فى أول الغيط من جهة الترعة :

- قل ما تريد .. خلصنى .

- أريد أن أفضفض لك .. قلبى مشحون .

- وما شأنى بقلبك .

- أنتى أشعلت فيه نارك .

- صابر !
- أحلام .. لماذا لا تجيئين لزيارة أختك ؟
- هى تزورنا .
- ردى الزيارة فى مرة .. عندى لك كلام كثير .
- عن أى شىء ؟
- عنى وعنك .
- أمى على بعد خطوات .. خلصنى .
- تعالى الليلة ، ستكون لدينا الفرصة .
مد يده فأمسك يدها .. وقبض عليها وانتقلت مشاعره إليها .. أحست بما عنده .. لمح نهدها الشقى المترع يطل من وراء الثوب ، فدنا منها .
- صابر .. الناس .
- عدينى أن تأتى الليلة .
أومأت برأسها .. تنهد وهو لايزال قابضاً على يدها ثم قال :
- أحبك يا أحلام .
كأنها كانت تنتظر الكلمة . أفلتت منه ومضت حشيئة إلى أمها . تفجرت ينابيع الهناء فجأة فى ضلوعه ، وأثمرت عناقيد الفرح . فعاد إلى الدار يكاد يطير من فرط الوجد ، يغنى . يصفر . يداعب الأطفال . يقلد العصافير . يجرى خلف الفراشات الملونة . يفتح صدره للأنسام التى حملت إليه عبق زهور البرتقال .. رائحة فريدة لم تتوقف إلا فى شرايينه ، فشرب ولم تبخل عليه الزهور ففتحت نوافذها وأطلقت العبير .
قرب دارهم انشقت الأرض عن شكل غير مألوف مخيف ومرعب .. حا.قت فيه وضحكت .. تمزق وعصف به الرعب .. كان منظرها بشعاً وهى محلولة الضفائر متسخة الوجه . ملوثة الفم بالطين .

مضطرب الخطو مزلزل الكيان اندفع إلى الدار كأنه يبحث عن ملجأ ، كفت عن الضحك وأرسلت فى إثره نظراتها الحاقدة .

قبع فى ركنه فرأى شبحها ماثلاً أمامه . أخفى وجهه ، هبت على أذنه صرخاتها المطموسة . سد أذنيه فصعدت إليه من ردهات الضمير . كانت تطل عليه من الأشياء . . كأنها روح الأشياء .

لم تأت أحلام ، رغم ما أعده لها صابر من لوازم لسهرة عائلية بريئة ولكنها مسلية وممتدة .

عند ظهر اليوم التالى كان يربض خلف دغل الغاب الإفرنجى . لحظات وظهر طيفها من بعيد . أحس بأنها هى قبل أن تكشفها له ملامحها .. قضت مع أمها لحظات .

كان صابر متوتر الأعصاب لا يقر له قرار ، ما دامت أمها هنا ، فلن يتمكن من نطق كلمة .

لم يسحب نظراته عنهما ، يخشى أن يتلاشيا فجأة . ابتسم إذ جاء الفرج مبكراً ، وأفضل مما كان يتوقع ، رأى أم أحلام ترتدى ثيابها النظيفة وتمضى فى اتجاه الكفر . خلت الساحة لهما وحدهما . إذن فأحلام تريده وهى تود أن تعطيه الفرصة .. واستعد حتى لاتفلت منه . لابد ألا يدعها اليوم تبرح المكان قبل أن يضع قلبه على قلبها ويده فى يدها .. لابد أن يتفقا اليوم ويطمئن بنفسه على أنهما يسيران فى اتجاه واحد . قفز الخطوات التى تفصله عنها . كانت تجمع عيدان الذرة . حملها بدلاً منها وسارت معه إلى الحظيرة .

كانت الحظيرة الممتلئة بالروث ورائحة البهائم أنسب الأماكن وأفضلها لهما ، أخذ يسحب عوداً من الذرة ويقدمه فى أناة لفم الجاموسة ، بينما يتحدث إليها ويدها فوق الجاموسة ويده فوق يدها .

الحديث طال وامتد ، وكلما انتهت عيدان الذرة ذهبا معاً فجمعا غيرها ، وعادا معاً ، والبهائم لا تكف عن الأكل وهما لا يكفان عن

الحديث . كانت البهائم تنعم بحنان العاشقين وحلاوة الذرة ، وطريقة تناوله وكميته الوفيرة.

لاح أخوها الصغير ، فخاض صابر فى قصب العمدة المجاور وانتهى اللقاء فجأة ، وفى القلب لوعة لذيذة وأشواق تعربد .

ظهر اليوم التالى ، حمل إليها زجاجة عطر من أجود العطور . ومنديلين بالترتر للرأس وأحمر شفاه . قرر أن ينفس عن أمواله . آن أوان استغلالها . وأحلام هى الجديرة بمال شفيتة .. فرحت أحلام جداً بالهدايا ورقص قلبها بين ضلوعها . فما كانت تحلم أن تهدى إليها مثل هذه الهدايا وفى هذه السن ، والحقيقة أن الحس النسائى فيها ضاعف فرحتها . إذ لم تكن الهدايا بالنسبة لها مجرد هدايا تشتاق إليها أية فتاة ، لكنها كانت إجابة هامة عن السؤال الذى يدور فى خيال أية بنت يحوم حولها شاب .. هل بإمكانه أن يلبى طلباتها ؟

نجح صابر دون أن يدرى فى أن يحملها على النظر إليه بصفته رجل المستقبل .

قبل الفراق حذرها صابر أن تكشف سر الهدايا لفرحانة . كان فرحاً منتشياً بالنتيجة العاجلة والتفوق الساحق الذى حققه ، لكنه كان على جمر خوفاً من فرحانة التى ستعرف ، ومؤكد أنها ستعرف فتسأله من أين لك هذا .. هل أرسل أبوك مالاً ؟

لم يطل كتمان أحلام لسرهما فقد جاء رجل يحمل حقيبة وبعد جهد وسؤال أهل البلد وصل لدار إبراهيم أبو لاشين قادماً من السعودية ، لأول مرة منذ عام تصل رسالة ترد الروح من إبراهيم لأهله المعذبين الذين أوشكوا أن ينسوا ملامحه .

الرسالة تقول إنه لن يتاح له الحضور فى إجازة ، العمل كثير وسوف يقضى عاماً آخر يجىء بعده مرة واحدة . سهرت فرحانة وأم صابر فى تقليب محتويات الحقيبة بين الدهشة والرغبة . كانت أم صابر قوية

وإن لم تبخل على فرحانة ، بل قدمت لها كل شيء لتختار ، وفى نفس الوقت كانت قادرة على أن توحى إليها بالتوقف ، إذا أشرفت على تجاوز الحد .

لم تكن فرحانة بلا أسنان ، وإن كان سلاحها الوحيد فى غيبة زوجها هو حسن السلوك .

كان وصول هذا المدد فرصة لصابر كى يخرج بعض ما يملك ، فى مظلة مال أبيه الذى هبط في الوقت المناسب . لن يتهمه أحد فى شفيقة حتى لو ظل ينفق منه أعواماً .

علمت فرحانة فى اليوم التالى من أختها أحلام أن أباها فى أسوأ حالاته . قررت فرحانة الانتقال للعيش معهم . لاحظت أن أباها ندر حديثه وثقل لسانه وقل طعامه وطال رقاده وإن كان مفتوح العينين ، حمله ولده عامر فى سيارة إلى القاهرة ليعرضه على أكبر الأطباء وعاد بالأدوية أكداساً بلا طائل .

كثرت زياراته للأطباء وزياراتهم له . . حتى تجرأ الأستاذ لاشين وقال لعامر :

- توقف يا بنى عن الطب . . فى حالة والدك أنت تضره بالحركة والسموم .

بدا أن المسألة ليست طباً . . خرج الأمر من يد البشر . وأيده الحاج عزب والحاج مهدى .

لم تكن فرحانة تفارقه ، كانت تغسل له وجهه وهو فى السرير ، تتحدث إليه ، وتلح عليه كى يأكل بعض الفاكهة أو يحتسى جرعتين من اللبن أو كوباً من الليمون ، بصعوبة كان يقبل ، وفى الأغلب يرفض . . فقد كانت أمعاؤه تتقلب وتتهيج فيتقيأ .

ثم آن الأوان والكل حوله فثقلت الأنفاس وتحشرجت ، إلى أن بارحت الروح الجسد . ضجت الدار بالصراخ والعويل واللطم ،

وعمت الكآبة . دبت حركة القادمين من الرجال والنساء والمولولات .

لم يكن على لسان أحد غير :

- كان رجلاً طيباً ، بل أطيب من فى البلدة .. كان فى حاله لايتعدى أبداً حدوده ، لا يقول كلمة شر ضد أحد .. كان البعض يسمونه الرجل الإنجليزى ، لأنه لا يقول شيئاً أبداً ولا يعرف أى شىء عن الشئون الشخصية للناس .. فهى تخصهم ولاتخصه ولايجب أن تخصه ، وكان من الناس من يأتى إليه ليحكى له مشاكله وأسراره ومتاعبه وخلافاته مع الآخرين من قبيل التنفيس ، لكنه كان يلقى بأسرارهم فى بئر . الصوت فيه بلا صدى . فهو آمن على السر من صاحبه . كان نموذجاً بشرياً نبيلاً ، ويكفيه فخراً أنه كان غير سيئ .

دخلت فرحانة خلسة إلى أبيها . لم تكن تريده أن يفارق ، كانت تريده أن يظل موجوداً ، مفتوح العينين تشع منهما نظراته الودودة ولوكان كومة من عظام .

فجأة تذكرت كلام الشيخة ونصيحتها أن تدلك بطنها بيد رجل ميت حديثاً . كان الإنجاب شاغلها حتى فى أعنف لحظات الكمد . لا تدرى ما السر فى أنها توقفت عن البكاء فجأة وتحجرت دموعها على خديها .. وحدقت فى أبيها .. وتذكرت حاجتها إلى الذرية .. حاجتها إلى الحياة . إلى العطاء وإلى الكرامة . تحس أنها بلا ولد كم مهمل .. مجرد شىء ، وبلا قيمة لدى إبراهيم ، رغم جمالها وصباها وحبه لها . رغم أنها كانت تعلم ألا جدوى من لمس يد الميت لأن إبراهيم ليس هنا لكى يجامعها بعد هذه الملامسة إلا أنها وجدتها فرصة لا تتكرر ، وهكذا تحمست استجابة لهاجس ثقيل بداخلها وأمسكت يد أبيها وقبلتها ، مسحت بها على بطنها وثدييها ، وعاودت الأمر عدة مرات ، وأخيراً قبلتها ووسدتها موضعها . لعنت الذرية والأبناء . وغلبها النحيب وتوغلت فيه واستسلمت له ، يحركها حبها البالغ لأبيها

وحنانه وهدوئه ورقة حديثه ، إلى أن دخلت بعض النسوة فأخرجنها ، ودخل الرجال فحملوا جثمان الرجل الطيب . مضوا به فى الرحلة التقليدية المقدسة .

هناك فرشوا تحته بعض الرمال . أسكنوه بهدوء ودعة داره الجديدة المؤقتة ، التى سيصير فيها وهو الجسد طعمة للدود والعفن . دعوا له بالرحمة وحسن الجواب عند السؤال .

سدوا الفجوة الفاصلة بين الأموات والأحياء بقوالب من الطوب ، وكحلوا الثقوب . . أصبح هو فى دار وهم فى دار تفصل بينهم فى لحظة واحدة آلاف السنين وملايينها وتباعد بينهم أحوال وأحوال .

قبره المتوارى بين القبور ، بدا كأنه يضىء . هكذا رآه الناس . شاهدوا رقة الميت ولطفه ، وكلماته الطيبة وثقته وحبه للناس . . حتى صمته . . كانت كل صفاته الحميدة ترفل من حول القبر فى ثياب من نور .

وعاد المشيعون يخامر بعضهم إحساس بالسعادة لأنهم مازالوا أحياء ، وما زالت لديهم الفرصة للفعل والمتعة .

عين صابر فى الجمعية الزراعية ولم يعد يهتم أدنى اهتمام بالأرض .. نصف النهار حتى الظهر فى الجمعية بلا عمل ، والعصر نائم وعند الغروب يبحث عن أحلام .

وفى المساء يسهر عند متولى يشاهد التلفزيون أو يسهر بالمقهى حيث تعود عامر شقيق أحلام أن يقضى وقته .

لم يعد يمر مجرد مرور أمام أرضه ، وقد بدت منخفضة وكابية وموحشة بين الحقول المزدانة بالخضرة ونبض الحياة ، سعيدة بمستقبلها يوم يحل وقت الحصاد .

شاهدها الأستاذ لاشين عدة مرات ، ورعت فى قلبه الحسرة فتحدث إلى أم صابر . قالت له إنها مشغولة بالدار ، وعلى صابر أن يعطيها من وقته بدل تسكعه طيلة النهار بلا عمل . صابر لم يستجب لدعوة عمه .. جيبه ممتلئ بالنقود فما الداعى للأرض وتعب القلب .

عرض العمدة على عامر شقيق فرحانة رغبة رشاد بك شقيق مدير الأمن فى شراء أرضهم ليقوم ببنائها مزرعة دواجن فوافق عامر وباع الأرض .

جاء وقت جمع القطن ، وللأسف كانت هناك أراضٍ كثيرة خاوية من أثر القطن ، وحان موعد خلع الذرة وتحميل الجمال والحمير بجوالات الحبوب إلا صابر وعامر وبعض أصحاب الحقول الأخرى الذين التحقوا بالوظائف ، أو الذين أرسلوا أبناءهم للقمائن والمعاطن ، وفضلوا أن يصب الأبناء فى أيديهم الجنيهات فى كل ليلة يشترون بها ما يشتهون من البندر ؛ الخبز والدجاج الأبيض ، حتى الخضراوات

والفاكهة والبيض ، والمسألة هينة فالكل يذهب فى الصباح إلى هناك ، والعائدون يحملون . أصبح الكفر الذى كان الكل يخرج منه محملاً بالخير إلى البندر ، مجرد فندق ، مجرد ليل وديع يستريح عند قدميه النهار الصاخب المجنون .

بدأ العام الدراسى الجديد وطلب الناظر نقله إلى مدرسة أخرى . وجاء بدلا منه ناظر جديد ، يتسم بحبه للأولاد وللعلم . . تعاون معه الأستاذ لاشين والمدرسون من القلب .

ولم يفت الناظر الجديد أن يقوى علاقاته بأهل البلد والعمدة وأبرز رجالها ويدعوهم إلى إبداء آرائهم فيما يرونه صالحاً ، ومن ثم أمكنه فى فرص متوالية أن يجمع بعض الأموال لترميم المدرسة ، وكلف الأطفال أنفسهم فى وقت فراغهم بالعمل فيها . فاشترك الكل فى تجميلها وزرعها بأشجار الفاكهة .

تحولت المدرسة بعمل الأولاد وإشراف المدرسين إلى فيلا وقرر الناظر فتحها طوال اليوم لاستقبال الشباب بعد الظهر ، وخصص لهم حجرة واشترى منضدة لكرة التنس وبعض الألعاب كالشطرنج والدومينو والطاولة ومكتبة امتلأت بالكتب . وأفسح المجال لهواة الرسم ، وعلق الرسوم على الجدران .

أصبحت المدرسة موقعاً متميزاً فى الكفر وعلامة مشرفة وسط كل الكفور المجاورة . أصبحت إشعاعاً ثقافياً وجمالياً ورياضياً ، وساعدت فى جذب الشباب وتقوية العلاقات بينهم وقد انتقل إليها جمهور كبير من الشباب ، الذى كان يتسكع فى الشوارع والحارات ويجلس فى القهوة وأمام الدكاكين .

ولولا قربها من مزرعة رشوان التهامى لكان حالها أفضل بكثير ، إذ كانت المزرعة التى تقع شمال المدرسة ترسل روائح مقززة . تملأ جو القرية كله وتتعلق به طيلة اليوم نهاره وليله رائحة متميزة وغير مقبولة

على الإطلاق ، وتظل رائحة المزرعة العادية أرحم بكثير من رائحة الدواجن الميتة التى تلقى بالعشرات كل يوم ، وأحياناً بالمئات حسب المرض الذى يجتاح الدواجن . روائح نتنة ، وأمراض تهب على البيوت والمزارع وميكروبات تربيها النفايات .

***

لم يعد صابر يدين بولاء تام لمتولى ، ولايحس بالاحتياج إليه أو الاعتماد عليه . النقود فى جيبه ، وقلبه يشغله ويراقصه حب أحلام ، وأصبح موظفاً فى الجمعية يرتدى القميص والبنطلون والسجائر لاتنطفئ بين أصابعه ، لم يعد صابر إذن أحد الخيول التى يملكها متولى . أصبح صديقاً رأساً برأس وعيناً بعين ، فإذا جلسا فى القهوة أقسم صابر أن يدفع ، دهش متولى فى البداية ، لكنه أدرك أن إبراهيم وراء ولده صابر يمده بالمال .

فجأة قرر متولى أن يحوم حول أحلام .. إنها أجمل البنات وهو تقريباً أكثر شباب القرية ثراء ، فلماذا لاتكون له .

وبدأ بالفعل يمارس دور المعجب فى تأنٍ وروية .. لم ترده أحلام بعنف ، ولكنه لم يستول على قلبها من أول مقابلة .

لابد من الصبر والتماسك رغم أنها كانت بالنسبة له مسألة حياة أو موت .. وهو لن يقبل أن ينالها صابر الذى كان خاتماً فى إصبعه حتى وقت قريب .

بدأ خطته للاستيلاء على قلب أحلام ، ونسف صابر من طريقه بشراء سيارة صغيرة ينتقل بها من الكفر إلى البندر ، ومرة بعد مرة يحيى أحلام وهو فى طريقه راكبا السيارة ، ومرة أخرى يدعوها للركوب ، ثم قوى علاقته بعامر وأوصله أكثر من مرة إلى المصنع .

ومع الوقت أحس متولى بأن جهوده تحقق نتائج طيبة ، فيكفيه منها الابتسام والرضا ، واستكمل هذه الجهود ببناء دار جديدة بالطوب

الأحمر ، مزودة بكل ما يلزمها كدار عرس ، حتى جهاز التكييف ركبه فيها ، وزينها من الداخل والخارج وملأها بالأثاث .

لم يبق أمامه إلا الانقضاض .. ساعتها سيرحب به أهلها ، ويشهد الكفر فرحاً لم يشهده من قبل ولن يشهده بعد ذلك .

اقتنع صلاح أخيراً برأى أمه فى أحلام ، وكان جمالها وحده كافياً لمنعه من أن يدرس شيئاً أو يراقب أو يلاحظ . فلها من الملامح ما يسر الخاطر ويحرك القلب المتحجر ويجذب الروح الزاهدة . معها ستكون السعادة غامرة .. ويكون فعلاً قد صبر ونال ، وأهلها لن يجدوا فيه عيباً ، فهو من عائلة طيبة وفى يسر وأخوه صحفى كبير بالقاهرة وهو على خلق وأكثر شباب الكفر المقيمين بها علماً ..

ذهبت أم صلاح لطلب أحلام فوعدتها أمها بالتفكير قائلة :

- وهل فى الكفر كله مثل صلاح ؟

تمثلت أحلام للشباب جميعاً ، وفى مقدمتهم صابر الذى يحبها وتحبه ، ومتولى الذى يملك كل الوسائل المادية المغرية ، وصلاح المتعلم الطيب .

أخذ كل من الشباب الثلاثة يرسم صورتها فى خياله ، وفى داره وعلى ذاكرة الأيام المقبلة .. وقضى كل منهم ليالى مسهدة وهى تبدو له وتختفى ، تدنو منه وتبتعد . تتأجج النار فى صدره المشبوب كلما لمح ثغرها الجميل يبتسم . كان صابر بحكم أقدميته واكتشافه لها ، وبصفته رجلها الأول قد كدس فى قلبه الأسرار والأحلام واللهفة وأغلق القلب على هذا الحشد من الحياة الرومانسية ، وألقى المفاتيح فى بحار عينيها وضاع .

صلاح ينتظر فى نافذة الفصل موعدها عند ذهابها إلى الغيط ، تلتفت نحوه ويرى عينيها تبتسم فى فرح طفولى . خالية من الأسرار ، فينتشى ويبتهج للحياة وللأولاد فى المدرسة ، الذين يكتشفون فوق

طيبته حناناً يكسو وجهه ورقة تخضب صوته .

وكـان متـولى فى داره الجـديدة يطل على الأثاث والأشـيـاء التى ستمسكها بيديها ، تلمسـها بأناملها وتنظر إليها بعينيها ، وتقربها إلى شفتيها وتريق عليها شذاها ، ويمنى النفس بسعادة لها معنى آخر غير سعادته التافهة التى يحاول الحصول عليها فى السهرات ، وفى الجلسـات المختلفة . . سعادة ليست فى الطعام والشراب والتبذير . . سعادة الاستقرار فى حضن الجمال والرقة . ويقرر بينه وبين نفسه أنه لن يخرج من داره إذا تزوجها . ولماذا يخرج ؟ ما الذى يحتاج إليه ؟ هنا فى الدار بعد أن تدخلها سيكون كل شىء . . ويظل يفكر فيها وهى ماثلة أمامه كنافذة مضاءة طيلة الليل .

كانت فى نهاية الأفق شمس برتقالية تغالب السقوط ، والبيوت بدت كأنها تود لو تزحف نحوها ، راغبة يمنعها الحياء .

والريح تروح وتجىء فوق الأرض ، كأنها تتعلم كيف تكنس الطريق ، وكيف تلقى التراب على الأبنية .

الطرقات مفتوحة وممتدة ، الخطو فيها نادر والصمت أغنية وحيدة ، لا تقاطعها إلا نداءات البهائم العائدة .

بالقرب من دار إبراهيم كان السنّان ذو الشوارب الطويلة ، يرتدى كعادته البدلة العسكرية المهترئة ، لا يعبأ بالريح . ينادى على السكاكين ، ويدفع بقدمه الحافية دواسة حجر السن ، بينما يده تتحكم فى السكين وتحرك جوانبه على الحجر الدائر ، فيتلوى السكين ويصرخ ، والشرار يتطاير منه والشظايا .

التف حوله الأولاد ينتظرون أن يفرغ من السكين المذبوح ، ليشتروا العسلية والطائرات الورقية يوجهونها للريح فتطير .

دنت شفيقة ، جلست على مصطبة إبراهيم تتأمل السنان وتحصى الأولاد ، كأنها الكلب أمام الجزار ، لكن الذى يتاح له الفرصة كى يحدق فى عينيها سيروعه نوع النظرات المنطلقة كالرصاص من عينيها ، ليست هى النظرات المستجدية ولكنها نظرات الاستعداد للقنص . نظرات مفعمة بالقوة تنفث اللهب .

نهضت فجأة وهجمت على ولد ، خطفت منه العسلية . اندفع نحوها . دفعته فى صدره ووقفت تلعقها وتخرج لسانها له ، وهو لا يستطيع أن يقدم على أى شىء . كانت نظراته تحكى مبلغ

الحسرة التى تنهش قلبه الصغير .

خامره الأمل أن تلعقها لحظات ثم تعيدها إليه . بقى ينتظر ، لكنها لم تفعل ، فسقطت دموعه فى صمت ، وتلألأ فى عينيها ابتهاج وحشى .

فى شبه صمت شقت الشارع الكبير سيارة وتوقفت بين السنان ودار إبراهيم ، نزل إبراهيم . دار ببصره فى المنطقة ، دون أن يبدو عليه أنه عاد إلى بلده بعد غياب طويل ، وكأن الأبنية المنحنية فى بؤس والطرقات الخالية وعصف الريح ، طمست مشاعر الشوق والحنين وذكريات السنين .

اكتشف أن شفيقة أمامه . ابتسم لها وسلم عليها بحرارة . كانت هى أول من استقبله من أهالى البلد . خرج صابر . رأى أباه وهو يعطيها جنيها فترفرف به فى الهواء كأنه جناح تطير به .

عانق إبراهيم ولده وضمه بعنف دون كلمة ، وحين ابتعدا ، ليعاود كل منهما النظر فى الوجه الحبيب ، كانت فى المآقى دموع وليدة يستحم فيها من يؤججه الشوق لأيام منهزمة .

دخل الدار فواجهته أم صابر . عانقته بحرارة ، وانفرطت فى بكاء عنيف ، زلزل إبراهيم وسطع الدم فى الشرايين الراقدة ، اكتشف إبراهيم أن أم صابر يمكن أن تبكى ، واستنتج وهو ما زال فى حالة الدهشة القصوى أنها إذن تحبه وتشتاق إليه وتحتاج ، وأنه قيمة لا يستهان بها على الرغم من أن الفرصة لم تتح لها أن تعترف بذلك قبل سفره . . كانت تغلق على مشاعرها دائماً مصاريع قلبها الأخرس .

مضى يربت على ظهرها وهى مندفعة ، كأنها تبكى بدلاً من أن تسبه .

ما هذا الانهيار ؟ . . ما الذى جرى . . ما الذى . . ابتعد . تطلعت العيون فى العيون تسألها ، وارتجفت المسافة بين العيون ، ثم هجمت عليه وقبلته عشرات القبل ، وكان صابر يكرر شكره لله لأن فرحانة

كانت في دار أمها، تشارك في إعداد وليمة عظيمة لضيف عزيز حل على أخيها عامر .

فرصة كبرى أتيحت لأم صابر ، كى تكشف دون أن تدرى عن وجدانية راسخة .. جلس إبراهيم بين أولاده الملتصقين به ، يتلفت حوله ويحدق في الأشياء ويشم الحيطان كأنه يسألها عن الأخبار .

بعثت أم صابر مرعى لينادى فرحانة . التقى بها عند الباب مندفعة كفيضان كاسح ، وقع مرعى ولم تنتبه فرحانة إلا بعد أن عبرت عن فرحتها الغامرة بقبل عديدة وعناق طويل ، ثم مضت فأعدت الماء الساخن وقامت رقية لتعد العشاء .

عندما التفوا حول الطبلية ، سمعوا يدان تصفقان . هب إبراهيم إذ عرف القادم ، تعانقا بحرارة الدم الأصيل والشوق المعتق ، وضعا القلب على القلب .

قال إبراهيم : وحشتنى يا أبا محمد .

قال لاشين : ربانا أبوك على أننا شخص واحد .

إبراهيم : الله يرحمه .

- كيف حالك وكيف أمضيت أيامك ؟

- كانت بلا نكهة وأنا أفتقد أحبابى .

جلس معهم للعشاء، وتحدثا بعض الوقت. كان إبراهيم معتم العينين ثقيل اللسان يجيب أخاه ببطء كأنه يطلب الكلمات من منفاها البعيد .

أخيراً قال لاشين : لابأس .. حمداً لله على سلامتك .. وعلى أية حال ليس للطموح معنى بغير الحصاد .

استأذن حتى يرتاح المجهد .

جلس إبراهيم بين أهله يدخن سيجارة بهدوء ورضا ، ويملأ بهواء مصر رئتيه كأنه هواء خاص ، ووصفة مشهود لها لتنقية الصدور التى زحف عليها الأسى .

تأمل سحابة الدخان المتصاعدة فى تشكيلات شفافة إلى أن تلاشت.
صعد إلى سرير أم صابر وهم جلوس على الأرض تحت ناظريه. يتحدثون إليه ويتحدث إليهم . لم يطل حديثه إذ سرعان ما تخلف عن بعض الإجابات وعلا غطيطه .

مضى وقت طويل وهم يتحدثون عن تدخينه المتواصل وعن وجهه الذابل وعوده الناحل وانطفاء ملامحه ، واختفاء ضحكاته التى لايعرف بدونها ، والشعيرات البيضاء التى ظهرت فى مؤخرة رأسه ، وعلامة استفهام كبيرة حول خفوت صوته ، وتنفسه المتوالى الذى بدا أقرب ما يكون إلى اللهاث .

تمدد السكون لحظات، متلعثماً يبحث عن إجابة ولما لم تأت الإجابة، تسلل الواحد تلو الآخر يجر الجسد المنهك ويدخل حظيرة النوم .

بسطت أم صابر جسدها على الأرض ، تحت أقدام السرير ، وعيناها لا تفارقان إبراهيم . ودت لو أدخلت كفيها فارغتين فى قلبه واغترفت من الأسرار التى ينوء بها . تريحه من ثقل الهم وتطالع المخبوء .

فتح فى الضحى عينيه فإذا هى واقفة فوق أجفانه تحمل الماء الدافئ .
كان قد نام نوماً عميقاً ولساعات كثيرة حتى بدا على ملامحه ما تجرعه من براميل المساء ، واحتفظت حدقتاه بعروق من الليل الممتد .

اغتسل وقدمت له الفطور الشهى .

بقى فى الدار يستقبل المهنئين بسلامة العودة ثم تناول غداءه المزدحم وإن كان لقيمات محدودة . أقسم أنه منذ زمن لم يأكل مثلما أكل .
فى العصر قالت له أم صابر : إدريس المدرس بمدرسة الكفر وهو من مرصفا يريد أن يخطب رقية .

- وكيف رآها ؟

- فى بيت عمها . دعاها بحجة التقاط بعض الصور ، وأعجبت المدرس .

- هل رأيته ؟
- لا لكن عمها يمتدحه ويزكيه .
- أول خبر أسمعه يسر .
- كل الأخبار ستسرك إن شاء الله .
- وحشتينى يا أم صابر .

كان هذا الأسبوع لأم صابر ، لأن الأسبوع الأخير قبل سفر إبراهيم كان لفرحانة ، وهو الذى أجرت خلاله تجاربها الإنجابية .

سهرت الأسرة بكامل عددها يفتحون الحقائب ويتجاذبون الهدايا ويدهشون ، ويفرحون بطعم التفاح والشيكولاته والملابس ثرة التلوين.
بدا إبراهيم مبتهجاً لبهجتهم . تنهد فى فرح .

أخيراً رأى على وجوهم البسمة .

كانت الظروف المالية الضيقة تصيبه بالحسرة والإحساس بالنقص وباليأس . لم يكن فى استطاعته أن يلبى طلباً لابن أو لزوجة ، وقد يحتمل غيره ذلك ، لكنه لايحتمل . لابد أن يكون ناسه أحسن من كل الناس ، وهو لا يطيق أن يرى واحداً من أبنائه محروماً يشتهى مالدى الآخرين .

بعون الله لن يبخل بجهد فى سبيل تحقيق كل أمانيهم . سوف يستغل ما أحضر من مال لإسعادهم ، والمال قادر أن يحقق الكثير .

انفض الجمع الفرحان ، وكل منهم يحتضن هديته لتنام معه ، تؤنس مرقده وقد تجلب له أحلاماً جميلة ، إلى أن يأتى الصباح وهو سرعان ما يأتى ، فيخرج كل منهم للناس بهديته فيزهو ويتيه .

جاء اليوم الذى يمكن أن يتجاوزوا الآخرين وأن ينظر لهم الآخرون وفى القلب لوعة وحسد .

ركب إبراهيم السرير وهو فى حالة صحية أفضل من أمس . كان يدخن وهو مسرور ، لأنه استطاع أن يضفى السعادة على الدار الكئيبة ،

الدار التى لم تعرف سعادة حقيقية مدوية منذ سنوات .

مضى يمنى النفس بأيام جديدة ، سترسو فيها أفكاره على شاطئ ذاكرة جديدة ، تسجل لحظات أفضل وساعات أجمل ، وتعود الليالى تتألق بفقاقيع ضحكاته .

خلال الضوء الهامس . . طلعت عليه أم صابر وقد انحلت ضفائرها . بدت كأنها شجرة تنبع من رأسها الأغصان وتتدلى الثمار . كان جسدها يومض فى الليل وهى ترتدى قميصاً جديداً .

– هل يمكن أن تتغير إلى هذه الدرجة !

قالت له وكأنها قرأت أفكاره : ألا يحق لى أن أفرح بك .

قال وقد نبتت على شفتيه لغة الشهوة : يحق .

لم يكن بقادر أن ينكر أشواق جسده ، انحنت عليه فقبلته قبلة طويلة . استقبلها بانبهار ، عاد ينظر إليها وقد رجعت عشر سنوات فى اتجاه الصبا . تطايرت فوق وجهه ضفائرها المحلولة .

أمعقول أن تكون هى أم صابر ، إنها فى الليل مخلوق آخر . نفذ عبيرها إلى رئتيه . كان لها عطر معتم مكتوم الشذى وكأنه حزن السنابل المحترقة . نهض فخلع ملابسه وفتح حقيبة صغيرة وقدم لها زجاجة : جربى هذا العطر .

غمرت جسدها بنصف الزجاجة ، حتى اهتزت الجدران للروائح المهتاجة . انكبت فوقه تصب فيه من خلال القبلات أشواق سنين ماضية ، رويداً رويداً تفتحت بوابة العنف الجميل ، وامتد الجسر الواصل بين ارتعاش الجسد المجنون وبين حرارة الخدر المتلهف .

كانت الزهرة العجوز تحاول جاهدة أن تخلق ألواناً جديدة من الشذى ، لكنها ظلت محاولات ، ومابلغه منها كان كافياً لأن يعيد إليه النشوة الغائبة .

(١٦)

عرض إبراهيم نفسه على طبيب كبير بالقاهرة إذ كان يحس آلاماً مبرحة بالمعدة، بدأت تهاجمه منذ شهور ، ولم يشف رغم ما تعاطاه من أدوية .

بعد التحليل والمنظار والأشعة ، تبين أن القولون هو السبب ، ولابد له من عملية جراحية .

لم يكن إبراهيم يحب العمليات أو حتى سيرتها ، ولكن لاشين شجعه وشد من أزره ، حتى أجراها وتحسنت حالته .

قرر أن يشترى ميكروباس يعمل عليه من البلد إلى البندر ، إذ لاحظ أن الأتوبس شاخ وأصبح أكثر الأيام عاطلاً ، لم تفكر الشركة فى استبداله بينما الركاب يزداد عددهم يوماً بعد يوم . موظفون وتجار وطلبة .

ذكره لاشين بالأرض .

- الأرض لن تهرب ، وحينما نحتاج إليها سنجدها تنتظر .
- الأفضل أن تشترى جراراً .. ألم تكن هذه مشكلتك ؟
- لم تعد المشكلة .
- كيف ؟
- لن يدر الجرار مالاً ، فضلا عن احتياجه الدائم للصيانة .
- الآن تقول إن الجرار لن يدر مالاً ويحتاج إلى صيانة .
- صدقنى يا لاشين ، هذا ما تبينته .
- سيخدمك وسيخدم الكفر .
- ومالى بهم .

- صابر يعمل عليه .
- صابر يريد أن يتزوج ويستقر على حساب أبيه .
- ليتزوج ويعمل .
- لديه الجمعية .
- الجمعية ليس فيها عمل . إنها مجرد مقهى رسمى يتقاضى الجالسون فيه مرتبات مثلها كمثل كثير من المصالح .
- سيعمل معى بعض الوقت .
- فى الأرض .
- عدنا إلى الأرض .
- لماذا تهرب منها هكذا ؟
- الحياة أصبحت صعبة .
- نحن الذين جعلناها صعبة بإقبالنا على التفاهات .
- سأشترى الميكروباس .
- سبقك ابن على التهامى .
- واحد لا يكفى .
- يا إبراهيم !
- اطمئن يا أبا محمد ، إنها فكرة مناسبة جداً وستدر مالاً وهى خدمة أيضاً لكل الناس .
- صحتك ليست على ما يرام .
- ستكون إن شاء الله .
- وهل معك ما يكفى ؟
- سأبيع الجاموسة .
- هل يكفى ؟
- لن أشترى ميكروباس جديداً ، ولكنه سيكون بحالة جيدة .
- راجع نفسك أرجوك ، فكل إنسان مهيأ لما خلق له .. إن ما تقدم

عليه الآن أخطر من السفر .

- توكل على الله .

رغم أن إبراهيم قد أقسم ألا ينفق مليماً إلا بعد أن يشترى الميكروباس ، إلا أن فرحانة بأساليب تعجز عنها الشياطين أقنعته بشراء تلفزيون ثم غسالة وثلاجة . بصعوبة كتمت رغبتها التى تخامرها منذ زمن وهى بناء دار لها وحدها .

اشترى إبراهيم الميكروباس فى يوم زفاف رقية ، واختفت السيارة وسط الزينات التى شملتها من كل جانب ، حتى غدت فى الموكب هى العروس وشهدت الأيام التالية عملاً متواصلاً من السادسة صباحاً إلى السادسة مساء فى نقل الركاب ، لا يتوقف خلالها العمل إلا ساعة واحدة للغداء ولراحة السيارة .

يركبها صابر بعض الأمسيات ، أو حينما يكون بها عطل أو تحتاج لخدمة ، فيبقى إلى جوارها عند الميكانيكى أو الكهربائى .

كانت السيارة تدر فى اليوم الواحد مالا يقل عن عشرين جنيهاً ، مما مكن إبراهيم أن ينفق عن سعة وابتعدت عنه تماماً سيرة الأرض .

عاد صابر ملتهباً يفكر فى أحلام ، وخاصة حين علم أن صلاح تقدم إلى أم أحلام يطلبها ، فوعدته بأن تفكر ، وأوضح حامل النبأ أنها ميالة إلى صلاح ، وعلم أيضاً أن متولى تقدم إلى أحلام فوعده أخوها عامر بأن يفكر واضطر صابر أن يواجه أباه ويصر على أن يذهبا الليلة لطلب يدها .

سأل إبراهيم فرحانة عن أختها واتجاه قلبها ، صرحت له فرحانة أن البنت تميل إلى صابر ، ولكنها أضافت أن أخاها عامر يصر على زواجها من صديقه محمد عرفة ابن عرفة صاحب معرض عرفة للسيارات وصيدلية عرفة وحلوانى عرفة وفندق عرفة ببنها .

- الموقف واضح يا صابر .

- لابد يا أبى أن نذهب . أحلام تنتظرنى .

- أخوها سيزوجها من صديقه .

- لأنى لم أتقدم .

- يا صابر !

- ارجوك يا أبى .. هذا حقها وحقى .. وأنا لست جباناً . لابد أن أتقدم إليها .

لم يجد إبراهيم مفراً من الرضوخ لرغبة ولده ، وهو العاطفى الحنون ، كما أنه يحب ولده ولا يريد لبيته أن يتصدع إذا وقف ضد رغبته ، والشباب فى هذه السن يريدون أن يرى الجميع ما يرونه هم وإلا لعنوا الدنيا ومن فيها . قبل أن يهما سمعا تصفيقاً ونداء . خرج صابر وقابل الضيف بفرح ، رحب به ودعاه للدخول فى إصرار . حدث صابر نفسه : لقد جاء بقدميه ولن أدع الفرصة تفلت من يدى . سوف لايبرح عامر الدار اليوم إلا وقد حدد موعد الخطبة .

قال عامر حين طلع عليه إبراهيم :

- أدعوكم لفرح أختى أحلام يوم الخميس .. لم يكن هناك داعٍ لأدعوكم .. فهى بنتكم والفرح فرحكم .

حدق صابر وهوبين النطق والصمت .. يود لو .. لو يقول : لا .

نأى بجانبه وحاول أن يخفى عينيه حتى لايرى عامر النار التى تأججت فجأة من كلماته ، وبدأت تلتهم أعز أمانيه ، صعد إلى السطح يجرى ليكون وحيداً مع نفسه . من فوق ألقى على النهار الراحل نظرة أخيرة .. حدق فى الأفق . فى الناس والأشياء ، يسأل والدموع لاتجيب .

مرت بضعة أيام وشهد الكفر كله أبهى الأفراح وأكثرها ضجيجا ، وأغلاها بما أنفق عليه من الطعام والشراب والزينات ووسائل الركوب .

قاوم صلاح رغبته فى الذهاب إلى عش الذنابير . أما متولى فلم يستطع مقاومة التطلع إلى العروسين . كان لديه إحساس جارف يدفعه

إلى تقييم المنافس ، وكأنه على ثقة أنه أفضل من هذا المختطف .

لم يستطع صابر أن يبقى هارباً فوق السطح ، ملاذه القريب من السماء. تناهت إليه طلقات النار تهتف للعروسين ، وتلقى فى سمائهما الأمنيات .. يبدو أن كل شىء ينتهى إلى نهاية غير النهاية .

قرر أن يذهب إلى العرس لترى وجهه ، لابد أن تراه ولابد أن يثبت عينيه فى عينيها لتولد الحقيقة .

بدت له مخلوقاً أسطورياً فى أرديتها البيضاء التى بولغ فى إعدادها والإنفاق عليها . كانت الأبهة الضافية ضرباً من الإهانة له ولغيره من الشباب ، بل كانت مراسيم الزواج كلها صفعة على وجه الكفر المتوارى فى غلبه .

عاد يحدق فيها .

عيناها فيضان من الربيع والنضارة . فمها القرمزى يفوح بالأنوثة ، وكانت هناك أيضاً ابتسامتها الشقية .

تصور لحظة أنها عبست فى وجه ثقيل الظل الذى يجاورها ، وهبطت من منصة العرس . تخلت عن جلاله . تسربت بين الصفوف المندهشة . تسعى فى عجلة حتى بلغته وقالت له :

« كنت أنتظرك حتى آخر لحظة . ها أنذا أجىء إليك فخذنى »

دنا منها ودنا . رأته . لم يكن بالنسبة لها شخصاً مميزاً . كان فرداً من الأفراد وشيئاً من الأشياء ، وشمعة فى ظل شمس متوهجة . تذكر اللحظات التى جمعتهما . كانت كل ملامحها ونظراتها تشى بأنها نقشت ذكراه على الثلج . لم تحاول أن تطامن من بهجتها المتألقة ، وكأنها تشهد الليلة زمانها المزدهر ، وهو يطلع من المجهول كوردة تتفتح .

– آه لهذا الزمن الجحود . شربت البنات فيه من الحرية حتى الثمالة ، ونلن مالم تنله بنات الأجيال السابقة . لكن إذا رحل الفتى عنها ،

لم تبك البنت لفتاها ، وإذا منعوها عنه لم تسهد . آه أيها الحب لامكان لك على أرض الزمن المطموس .

حاول أن يتنفس . أن يملأ رئتيه بالهواء . لكنه توقف .. رأى أن الاختناق أفضل من تنفس هواء تلوثه روائح الخيانة .

انفتحت قاعات بأعماقه ، وحومت الدوامات فى الفراغ ، ولم يجد مفراً من العودة .

استدار ومضى ينتزع من الأرض أقدامه المهزومة . رفع رأسه ليتنفس وليكن ما يكون . لاحت له السماء كبركة سوداء راكدة ، والقمر استقر بعيداً فوق القبور . دحرجه الطريق إلى الدار فدفن نفسه فى المرقد المعتم .

(١٧)

عاد صابر يبحث عن التسلية والعزاء ، عاد إلى متولى ، وعاد إليه متولى الذى اضطرته الظروف أن يفكر فى صابر من جديد وأن تتصل بينهما اللقاءات .

ومهما كان الأمر فالعلاقة التى تربطهما تبدأ جذورها من سنين الطفولة ، ولايجب أن يختلفا على امرأة ، هاهى قد ذهبت دون أن ينالها أحدهما .

كان متولى يصحب صابر فى سيارته بعد العصر إلى البندر ، إذا كان إبراهيم سيعمل على السيارة طيلة النهار ، وفى حالة اكتفائه بنصف النهار وترك الفرصة لصابر كى يعمل عليها فى الفترة المسائية ، فإنهما بعد العمل يلتقيان فى مقهى الزتحرى .

هناك بعد العودة الحماسية تعرفا على شخصية غير عادية . إسكافى عجوز يسكن عزبة القرود ، خفيف الظل حاضر البديهة محب للضحك إذا لم تسعفه الذاكرة بنكته ابتكرها بنفسه .

كانت لعم حشيش تعليقات مثيرة على أى شىء حتى اسمه وأنفه الكبيرة ، والأمر يزداد سوءاً أو حسناً إذا تجرع زجاجتين من البيرة . حينئذ تكون محاولات منعه من الضحك أو وقف تعليقاته أمراً مستحيلاً . يصبح كالفيضان يغمر الجسور ويغرق الدور .

وبعد أن يذهب عم حشيش ينتقل صابر ومتولى إلى الفيديو وراء النصبة ، حيث تعرض أفلام جنسية .

***

عادت فرحانة تلح على إبراهيم من جديد :

- هذه الأيام هى آخر فرصة كى تبنى لى داراً .
- هل أنبأك ملك من السماء أننا سنموت أو نصبح معدمين ؟
- بل أنبأتنى نفسى أن لديك من المال والوقت ما يسمح ببناء الدار .
وضحك إبراهيم : أى مال ؟
- الذى عدت به .
- أما زلت تذكرين ؟
- وهل أنسى !
- تعلمين أنى أنفقته كله على السيارة وزواج البنت .
- قل هذا لغير فرحانة .
- لاأخفى عنك سراً .
- تخفى الكثير .
- أبداً وحياتك .
- لقد صبرت طويلاً .
- هانت .
- أنا الذى هنت .
- أنت كل شىء .
- ابن لى داراً أو طلقنى .
- وهل تتخلين عنى ؟
- لابد من الدار .
- أمهلينى .
- حتى غد .
تفجر الضحك من جديد .
- لا تأخذ المسألة ببساطة .
قال وهو فى نصف الطريق بين الضحك والضيق :

- اطمئنى .
- لا أطمئن إلا بالفعل .
- قلت لك إن الدار تحتاج إلى مال كثير .
- يكفى أن تضرب عشرة آلاف طوبة .
- نجرف الأرض ؟ !
- الناس يلقون فيها بقاياهم .
- لاتليق بك دار بالطوب الأخضر .
- بل طوب أحمر وأعمدة مسلحة .
- بالله عليك ألا يستحق هذا خزانة كاملة ؟
- لن تكلفنا دار عظيمة غير ألفى جنيه .
- من عينى فاصبرى .
- ابدأ ويفرجها الله .

نهض متكاسلاً . بارح الدار . بدا واضحاً أنه يفكر فى طلب فرحانة . ومضى إلى خص البركاوى شارداً . قبع فى ركن يبتلع أنفاساً لا تنتهى من الجوزة الحامية ، وعندما عاد بعد الغروب تسلمته أم صابر :

- هل تنوى أن تقيم داراً لزوجتك .؟
- هه .

تنهدت ثم أعادت عليه سؤالها . أحس بالحصار ، لكنه قال فى غير احتفال :

- مجرد فكرة .
- ألا تجد راحتها هنا ؟
- تجد كل الراحة .
- فلم الدار الجديدة ؟
- لأن هذه دارك .

- ألا تتسع لها ؟
- ماذا يحدث إذا جرى لى شىء ؟
- هذا عمل الله لا عملك .
- نستعد لكل الظروف .
- بتبديد الأرض .
- لن يتبدد شىء .
- اعتبر هذه الدار لها .
- أين تذهبين ؟
- لا أغلب وليست مشكلة .
- هذه دارك والأولاد .
- وهذه أرضى والأولاد .
- سنبنى لها دار صغيرة .
- سأعيش أنا فى حجرة السطوح لتكن كل الدار لها .
- لا أقبل .
- يبدو أنها فكرت واتفقتما وانتهى الأمر .
- المسألة مازالت .
- لن تمس الأرض يا إبراهيم .
- ماذا تقولين ؟
- ما قلته . . لن تمس الأرض إلاعلى جثتى أنت وغيرك .
- لعلك جننت !

خلفته ومضت صامتة . ضرب كفاً بكف :

- ماذا تقول هذه المجنونة . أنا هنا الرجل . أنا هنا السيد . أنا هنا صاحب الأمر والنهى . لابد أن أنفذ ما أقول والويل لمن يعصانى . شىء غريب حقاً . أنا لا أفكر إلا فيكم وفى راحتكم ، وليس بينكم من يفكر فى راحتى ! . . أف .

أشعل سيجارة ثم اندفع خارجاً . توجه من فوره صوب مرزوق سائق البلدوزر .. طلب إليه أن يجرف ستة قراريط من الأرض بعمق متر .

تمهل مرزوق لحظة قبل أن يقول :

- اليوم من أيام ربنا هو الاثنين .

- نعم الاثنين .

- سأكون فى أرضك صباح الجمعة .

- المهم لا تنسى .

- ليتك تذكرنى مساء الخميس .

- إذا عشنا .

رفض إبراهيم شاى مرزوق وقرر العودة فوراً إلى داره .. أشعل سيجارة وقد شعر بقدر من الهدوء :

لابد أن تشعر النساء بقوتك وحزمك . لا تكن رخواً .. اضرب ضربتك فى الوقت المناسب . بهذا التصرف الحاسم ستخشى أم صابر جانبى وتنام فرحانة عند قدمى .

تنهد بعمق . غسل صدره بنسيم حنون بعثته الحقول القريبة .. فى الدار حاول أن يتشمم رائحة أم صابر . لا رائحة لها . أنصت لعل حركة تدل عليها .

ترى ما الذى حدث لها بعد ثورتى . سوف تعمل ألف حساب إذا قلت كلمة .

تقدمت منه فرحانة .. قالت له :

- أأعد لك العشاء ؟

- اغربى من أمامى .

بصوت خافت . سأل الأولاد عن أمهم التى لا أثر لها ..

قالوا : خرجت وراءك .

تعجب .

نـادراً مـا تخـرج بـعـد العـشـاء فـأيـن ذهبت . . هـل تكـون قـد ذهبت إلى أخيـها ؟

قبل أن تشرق الشمس كانت أم صابر هناك ، تبنى خصاً يعتمد على شجرة الليمـون وسـوراً من الغاب على واجهة الغيط بينما كان رشـوان يعزق الأرض .

مر بهـا الأستاذ لاشـين فحيـاها . . تمنى لها الصحة . . أبدى رغبته في المساعدة لكنها رفضت . عاد إلى مدرسته سعيداً بانتهاء عهد الخراب الذى لحق بأفضل جزء من أرض أجداده .

علم إبراهيم بما جرى للأرض فثار ، وقد خالجه شعور بأن مشروعه سيتوقف إلى الأبد ، فضلاً عن عصيان أم صابر له ، وتخلى فرحانة عنه . تلك بداية النهاية .

بوعى تام أشعل نار غضبه وسب أم صابر ولعن أجدادها .

فى هدوء تأبطت وسادة وبطانية واختفت فى الظلام ، خلفته وحده يحاول السيطرة على نفسه وعلى الدار ويثبت دعائم رجولته .

احتـواها الخص الجـديد . قـررت أن تبـقى فيـه إلى الأبد ، أو إلى أن يشـاء اللّه لإبراهيم فيـهـتـدى ، ويعلـم أن الأرض يجب أن تبـقـى خـارج كل الحسابات والصفقات والألاعيب والهدايا والمشروعات المربحة ، ولا يجب أن تكون ثمناً للحظات الجميلة مع الصبية الصغيرة .

طلع صباح الأربعاء على العالمين فإذا الأرض تسوى وتخطط وتستقبل الماء والبذور بشوق الأم ، على حين كان جسد إبراهيم وكل كيانه قد تحول إلى بركان يوشك على الثورة والانفجار ، لكنه كان يتعلق بأمل واحد هو أن يكتسح البلدوزر كل شىء .

قبل أن يخرج صابر بالميكروباس طلب إلى أبيه أن يعيد أمه ، فهذا وضع لا يقبله إنسان ، هذا يعنى أن يصبحوا فى آخر الزمان مضغة فى الأفواه .

عند الغروب تهادى إبراهيم صوب الأرض . دنا من أم صابر . تحدث إليها بكل لطف . داعبها فأشاحت بوجهها . ظل معها بحلو كلامه ورقته إلى أن تحولت إليه . قال لها إنه ما جاء إلا ليشكرها لأنها بذكاء قدمت الحل للأرض المسكينة ، ووعدها بألا يجرفها .

تألق فى الظلام محياها وهى ترى إبراهيم أبا صابر أبا كل أبنائها يثوب إلى الرشد ويعرف عقله الطريق الحق . بدا جلياً أنها تحبه .

فى حنان قال لها :

- هيا بنا إلى الدار .

- انظر إلى الأرض . .

- هيا بنا إلى الدار .

- غداً نأتى إلى هنا وتراها .

فرح الجميع بعودة أم صابر حتى فرحانة ، وجاء صابر مبكراً وقضى الجميع وقتاً طيباً .

عصر الخميس مضى إبراهيم إلى مرزوق يؤكد الموعد .

أكد مرزوق أنه فى الصباح قادم .

شاع فى الدار شعور بالرضا . كانت أم صابر فى حاجة إلى النوم العميق واطمأن إبراهيم إلى أن كلمته هى العليا ، وأنه يمسك بكل الخيوط فى قبضته ، أما فرحانة فقد أوشكت أن ترقص فرحاً لثقتها فى تصميم زوجها ، وعن قريب يتحقق أملها فى دار تملكها وحياة مستقلة تشكلها كما تشاء .

فى هذه الليلة حلا لصابر أن يمضى فى جلسته البهيجة رغم توغل الليل . قال لصاحبه : السعادة فرصة . . اللحظات الجميلة يجب أن يخطفها المرء من فم الزمن المولع بالأحزان .

تدخل الزتحرى فى نحو الثانية ليقول : أكملا السهرة فى مكان آخر .

رد صابر : اذهب أنت فنم فى دارك ودعنا .
ستسأل عنك أمك .
ضحك صابر ولحق بمتولى . مضيا يبحثان عن الطريق .
الرأسان ثقيلان والنظرات زائغة الأقدام لاتقوى على الحمل والمسير .
عاد صابر فى الميكروباس ومتولى فى سيارته يتبعه . عبر مزلقان السكة الحديد . وانطلق فى الطريق الترابى إلى الكفر يغنى أغنية تساعده على الوعى ، لكن لسانه كان ثقيلاً . . الكلمات تتأخر حتى توافيه ويضطر أن يكمل ما بينهما صمتاً أو دندنة .
كانت الأشجار تنتقل من جانبى الطريق وتنزرع ، فيهز صابر رأسه يدلك عينيه وينظر من جديد ، فتعود إلى مواضعها الأشجار . . بعد لحظات رأى شفيقة وهى تبتسم ابتسامة مرعبة ، هددته بحجر فاضطرب . حاول أن يتفاداها فانحرف إلى اليمين .قفزت الأشجار أمامه . هرب إلى اليسار بسرعة . كانت حركة المقود زائدة فاندفعت السيارة إلى المصرف .
غطت المياه نصفها .
أسرع متولى إلى صاحبه . استطاع بعد جهد أن يعينه على الخروج . جلس صابر على الأرض ، دون أن يحس بالدماء التى تسيل من جبهته . التقط أنفاسه بصعوبة ، وعثر على لسانه فقال :
- أين ذهبت المجنونة ؟
- من ؟
- شفيقة .
- يبدو أن رأسك تؤلمك .
- ألا تصدقنى ؟
- لا تشغل بالك .
- السيارة .

- غداً الجمعة سأحضر مرزوق ليخرجها .

بعد أن هدأت الأعصاب التى أفزعتها الصدمة حمل متولى صديقه إلى الدار ومضى . طرق صابر الباب طويلاً فلم يفتح أحد . أخيراً قرر الذهاب للنوم فى الخص الذى أقامته أمه .. هذا أفضل لأنه لن يقدر على كتمان ما حدث ، كما أنه لن يحتمل لوم أحد ، وفرصة لينام حتى الظهر .

فى الخص التف بالبطانية وسرعان ما سقط الجسد المجهد .. تلاشى الإحساس به وبالكون كله .

قبل أن يطلع النهار كان مرزوق فوق البلدوزر يكتسح كل شىء . الخص وسور الغاب .. يغرف من الأرض بملعقته الهائلة تلالاً من العرق واللحم والذاكرة .

وبعد أن خاض بعيداً فى الأرض والنهار جاء إبراهيم ليطمئن على العمل .. قدم السيجارة لمرزوق وجلس يرقبه وهو يتلاعب بالآلة الضخمة كأنها مجرد دمية صغيرة تحتويها قبضته ، مع أنه لا يكاد يظهر من هيكلها الكبير .

قال إبراهيم لنفسه : ما أقدر الإنسان . خسارة أن يدخل النار .

تمثلت له أم صابر .. فتحدثت إليه نفسه :

- كانت تريد أن تلوى ذراعك .. تفرض عليك حلها .. فأين حلها الآن ؟ ماذا كان بوسع بذورها أن تصنع ، مرزوق بضرباته المجنونة قد غير معالم الأشياء . الآن أفكارك هى التى تسود ، وكلمتك تعلو فوق الجميع فعلاً لا قولاً .

شعر بالرضا عن نفسه . أدرك فى هذه اللحظة أنه أصبح شخصاً آخر ، له وزنه له كيانه . يمكنه من اليوم ألا يرجع إلى أحد فلم يعد صغيراً حتى يتعين عليه طلب المشورة والاستماع إلى النصح .. الأمور تمشى الآن حسب هواه .

نهض دون أن يدرى إلى أين ، لكنه كان يريد أن يسير وسط الناس لعلهم يتعرفون على ملامحه الجديدة ، لقد آن الآوان كى يأخذ وضعه كرجل من كبار الرجال .

جاء متولى بعد أن علم بوجود مرزوق فى أرض إبراهيم يستدعيه لسحب الميكروباس .. مضى معه . كانت مقدمة السيارة المنكوبة مغروسة فى القاع المجهول . جرها مرزوق بحذق واستدار عائداً .

مشت السيارة صاغرة وراء البلدوزر مطأطأة الرأس كمن ارتكب ذنباً ويبدى من القلب الندم الخالص .

انتهت الرحلة وقطع البلدوزر كل صلة له بالميكروباس المكلل بالعار .. عاد إلى عمله .

تجمع أهل القرية يرقبون السيارة وزجاجها المكسور ، والعين اليسرى المفقوءة ، ومن خلفها جبل التراب الأسود الذى أخذ يكبر ويكبر ، لكنه بعد حين بدأ يتضاءل كلما تكشفت الجهود المبذولة للبحث عن صابر .

بنها فى مارس ١٩٨٣

المؤلف

فؤاد قنديل

- ولد فى ٥ / ١٠ / ١٩٤٤
- حصل على الليسانس فى الفلسفة وعلم النفس
- حائز على كأس أحسن كاتب قصة لعام ١٩٧٩ من جمعية القبانى الأدبية .
- عضو مجلس إدارة اتحاد الكتاب .

صدر له :

(١) عقدة النساء ، مجموعة قصصية ، ١٩٧٨ .

(٢) كلام الليل ، دار الغد ، مجموعة قصصية ، ١٩٧٩ .

(٣) أشجان ، رواية ، العربية للنشر ، ١٩٨٠ .

(٤) الناب الأزرق ، رواية ، المطبعة الفنية ، ١٩٨١ .

(٥) العجز ، مجموعة قصصية ، دار الهلال ، ١٩٨٣ .

(٦) السقف ، رواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٨٤ .

(٧) عشق الأخرس ، رواية ، أخبار اليوم ، ١٩٨٦ .

(٨) موسم العنف الجميل ، رواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٦٨٧ .

(٩) شفيقة وسرها الباتع ، رواية ، دار الغد العربى ، ١٩٨٦ .
ط٢ مركز الحضارة العربية ، ٢٠٠١ .

(١٠) نجيب محفوظ كاتب العربية الأول، دراسة، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٨٨ .

(١١) عسل الشمس ، مجموعة قصصية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٠ .

(١٢) إحسان عبد القدوس عاشق الحرية، دراسة، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٠ .

(١٣) عصر واوا ، رواية ، دار الهلال ، ١٩٩٣ .

(١٤) بذور الغواية ، رواية ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، ١٩٩٤ .

(١٥) شدو البلابل والكبرياء ، مجموعة قصصية ، مختارات فصول ، ١٩٩٥ .

(١٦) أدب الرحلة فى التراث العربى ، دراسة ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٥ .

(١٧) الغندورة ، مجموعة قصصية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٦ .

(١٨) روح محبات ، رواية ، المكتب المصرى للطباعة والنشر ، ١٩٩٧ .

(١٩) زهرة البستان ، مجموعة قصصية ، الهيئة العامة لقصور الثقافة ، ١٩٩٩ .

(٢٠) محمد مندور شيخ النقاد ، دراسة ، مركز الحضارة العربية ، ط٢ ، ٢٠٠٠ .

من قائمة الإصدارات الأدبية

رواية - قصة

العنوان	المؤلف	العنوان	المؤلف
ليلة العشق والدم	إبراهيم عبد المجيد	سراديب	عفاف السيد
حمدان طليقا	أحمد عمر شاهين	اينارو	د. على فهمى خشيم
ملاعيب الأكابر	أحمد الشيخ	حكاية شمردل	عمار على حسن
سريب	أحمد الفيتورى	جنية الشفق (قصص شاعرية قصيرة جدا)	د. فاروق أوهان
وقائع غرق السفينة	إدريس على	البحر يغرق	د. فاروق أوهان
صخور السماء	إدوار الخراط	وجهها وطن	فاطمة يوسف العلى
تباريح الوقائع والجنون	إدوار الخراط	تاء مربوطة	فاطمة يوسف العلى
مخلوقات الأشواق الطائرة	إدوار الخراط	لبلاد طلبت أهلها	فيصل سليم التلاوى
همس العاشقين	أمين بكير	يوميات عابر سبيل	فيصل سليم التلاوى
حكايات من دفاتر النسوان	أمين بكير	وتر مشدود	قاسم مسعد عليوة
دنا فتدلي (من دفاتر التدوين ٢)	جمال الغيطانى	خبرات أنثوية	قاسم مسعد عليوة
مطربة الغروب	جمال الغيطانى	ترانزيت	ليلى الشربينى
تكوينات الدم والتراب/الخروج عن النص	د. جمال التلاوي	الفتيت المبعثر	محسن الرملى
المتعبون	جمعة محمد جمعة	المينا الشرقية	محمد جبريل
دموع ايزيس	حسنى لبيب	مد الموج	محمد جبريل
يومية هروب	خيرى عبد الجواد	حريم .. (أعزكم الله)	محمد الغربى عمران
العاشق والمعشوق	خيري عبد الجواد	الخروج إلي النبع	محمد قطب
سيرة عزبة الجسر	سعد الدين حسن	يا عم يا جمَال	محمد الناصر
شجرة الخلد	سعد القرش	الحياة الذروة	د. محمد نعيم شريف
شهقة	سعيد بكر	الحبيب المجنون	د. محمود دهموش
أيام هند	سيد الوكيل	فندق بدون نجوم	د. محمود دهموش
الممنوع من السفر	شوقى عبد الحميد	اختزال في المسافة والسفر	محمود الورواري
أيام الغربة الأخيرة	صالح سعد	الحنين إلى النسيان	ممدوح القديرى
دردانين	عاشور الطويبى	الضياع وجبل الأوهام	ممدوح القديرى
الدميرة	د. عبد الرحيم صديق	الهروب مع الوطن	ممدوح القديرى
الخرابة	د. عبد الرحيم صديق	دم الأبنوس	ناجي الشكري
ليس هناك ما يبهج	عبده خال	ويصدا ماء النهر	ناصر الهلابي
لا احد	عبده خال	حافة الفردوس	نبيل عبد الحميد
أخر ما قاله النهر	عز الدين الأسوانى	قمر أخضر	نهلة السوسو
صعيدي صح	د. عزة عزت	خلف النهاية بقليل	وحيد الطويلة